سورة النحل

مكية وهي مع البسملة مائةٌ وتسعٌ وعشرون آيةً وستةَ عشرَ ركوعًا.

وهـــي مكية كلها، قاله الحسن والعطاء وعكرمة وجابر. وقال ابن عباس: إلا ثلاث آيات منها نـــزلتْ بالمدينة، وهي قوله تعالى ﴿ولا تشتروا بعهد الله.. إلى قوله ولنَجزِيَنّهم أجرَهم بأحسنِ ما كانوا يعملون﴾(الآيات: ٩٦ – ٩٨). بينما قـــال الآخـــرون: إن الآيات المدَنية هي قوله تعالى ﴿وإنْ عاقبتم فعاقِبوا بمثل ما عوقبـــتم به﴾ إلى قوله تعالى ﴿والذين هم محسنون﴾، وقد نـــزلت هذه الآيات بشأن تمثيل الكفار بحمزة وغيره من قتلى أُحد. وقالت طائفة أخرى من العلماء: إن الآيات المدَنية تقع في مستهل السورة بدايةً من قوله تعالى ﴿أتى أمرُ الله﴾ إلى قوله ﴿عما يشركون﴾. (البحر المحيط)

ولكـــن قتادة يحمل رأيًا معاكسًا تمامًا حيث يعتبر السورة كلها مدنية، ما عدا الآياتِ الثلاث الأولى. (المرجع السابق)

أما المستشرقون فإن "ويري" منهم يرى أن هذه السورة مكية كلها نـــزلت في أواخـــر الفترة المكية. ويوافقه في الرأي "نولدكه" (Noeldeke) إلا أنه يقول أن الآيـــات التي رقمها ٤٣، ١١١، ١١٩، ١٢٠، ١٢٥ مدَنية، علمًا أن "نولدكه" لا يعتبر في ترقيمه البسملةَ جزءًا من السورة. وأما "سيل" (Sale) فيرى أنها مكية كلها ما عدا الآيات الثلاث الأخيرة. ولكن "ويل" (Weil) يعارض موقف "سيل" بشدة، ويرى أن السورة مكية كلها. (تفسير القرآن لـــ "ويري")

سبب تسميتها:

لقد سُمّيت هذه السورة بالنحل لأن الله تعالى قد تحدّث فيها عن نزول الوحي على النحل، ليدلّل به على أن هذه المصنعة الكونية كلها تدار بالوحي. فالوحي هو الموضوع الرئيسي المحوري لهذه السورة.

والسبب الآخر لهذه التسمية هو أن الله تعالى قد تناول فيها موضوع الجهاد أي القتال لأول مرة، وكان طبيعيًّا أن تُثار الاعتراضات ضد القتال، فرد الله على هذه المطاعن سلفًا بذكر النحل، موضّحًا أن النحل تنفع بعسلها كما تلسع بحُمَتها أيضًا، ولكن نفعها أكبر من ضررها؛ وذلك هو مَثلُ الجهاد، فإنه أمر شاق، ولكن وراءه هدف نبيل ألا وهو الحفاظ على العسل الروحاني: الوحي.

علاقة سورة النحل بغيرها

لقد سبق أن بينتُ أن هناك صلة بين مواضيع السور القرآنية وبين المقطعات الواردة في مستهلّها، وأن السور الخالية من أي مقطع تابعةٌ في المعنى للسورة التي استهلّت بمقطع من قبل. وبحسب هذه القاعدة تُعتبر سورة النحل تسلسلاً للموضوع الذي عالجته السورةُ السابقة.. الحِجرُ، ولكن سورة النحل تتناوله بأسلوب آخر. لقد استهلت سورة الحجر بمقطع ﴿الر﴾.. ومعناه: أنا الله أرى، وقد نوقشت هذه الصفة الإلهية نفسها في سورة النحل ولكن من زاوية أخرى، حيث بيّن الله ﷻ فيها أهميةَ الوحي وعظمتَه، والغرضَ من نزوله، والقوةَ الكامنة فيه. فقد برهن الله في سورة النحل على أن لا حدود للقوة القدسية الكامنة في القرآن: أكملِ الكتب السماوية قاطبة، فكيف يمكن أن يحوم الشك حول نجاح المسلمين؟

ومما يربط هذه السورة بالتي قبلها أن الله ﷻ قد أنذر الكفار بالعذاب في السورة السابقة بقوله: ﴿وأن الساعة لآتِيَةٌ﴾، وبقوله: ﴿فَوَرَبِّك لنَسئَلنّهم

أجمعين﴾، وقد أخبر الآن في مستهل سورة النحل أن هذا الوعيد على وشك أن يتحقق حيث قال: ﴿أتى أمرُ الله فلا تستعجلوه﴾.

هناك سؤال يجب الرد عليه: لماذا استخدم الله في السورة السابقة كلمةَ ﴿آتية﴾ بينما قال هنا ﴿أتى﴾؟

ليكن معلومًا أن من أسلوب القرآن أنه حين يريد التأكيد على حدوث أمر أو على اقتراب وقوعه يستخدم لـــه صيغة الماضي، لأن ما قد حدث في الماضي لا يحوم حول حدوثه شك ولا شبهة.

وعلـــيه فقولـــــه ﷻ ﴿أتى أمر الله﴾ أيضًا يشكّل دليلاً على أن سورة النحل نـــزلت قبل حادثة الهجرة بفترة قصيرة جدًّا.

ملخص محتواها:

تتـــلخص مضامين هذه السورة في أن ساعة تحقُّق الوعد الذي قُطع مع الكفار قـــد اقتربت جدًّا، وألا وزنَ لاعتراضهم: كيف نزل الوحي على شخص عادي كمحمد!؟ أفلا ينظرون إلى الإنسان كيف كان حقير الشأن في بداية خلقه، ومع ذلـــك رفع الله تعالى مكانته بتطوير قواه الكامنة، وجعله وارثًا لنعمه التي لا تعد ولا تحصى. كذلك تمامًا إذا اختار الله ﷻ شخصًا قليلَ الشأن فيما يبدو وفضّله عـــلى الآخرين في العالم الروحاني، فليوقن هؤلاء أنه لم يقع عليه الاختيار الإلهي إلا لكفاءاته التي ما تزال عليهم خافية.

ثم بـــين الله تعالى أنه كيف يمكن للذي هيأ الوسائل لرحلاتكم المؤقتة في العالم المادي أن يتغافل عن أن يهيئ الوسائل لرحلتكم الأبدية. لا أحد يقدر على سد حاجـــاتكم الروحانية، لا أنتم ولا آلهتكم الباطلة، وإنما الله ﷻ وحده هو القادر على أن يدلكم على الطريق الصحيح والأقرب إليه ﷻ، ثم يهديكم إلى الوسائل الملائمـــة للســـير في هـــذا الطـــريق. وبالفعل يُطلِع اللهُ عبادَه على هذه السبل

والوسائل. أما إذا تدخَّل الإنسان في هذا الأمر وأخذه في يده، وخلق لنفسه المشاكل، فهو المسؤول عن هذه العواقب.

ثم أخبر الله تعالى عن أحوال السالكين في سبيله، ومصير الذين ينحرفون عنه. كما وضّح أن جزاء الإنسان يترتب بالنظر إلى عاقبة أمره. فلا قيمة للاعتراض بأن جميع الناس لا يؤمنون برسل الله على الفور، بل هناك من يعارضون دعوتهم في البداية ثم يصدقونها، فماذا سيُفعل بهم؟ لأن المؤمنين والمنكرين سوف يُسألون بالنظر إلى خواتيم أمرهم، لأن الطريق المؤدي إلى الدار الآخرة يبدأ حيث ينتهي سفرهم في الدنيا بالموت.

ثم ردّ الله على السؤال القائل: إذا كان الرسل يُبعثون من عند الله تعالى فكيف يتجاسر الناس على إنكارهم؟ فأخبر أن الله القادر يستطيع أن يجبرهم جميعًا على الإيمان، ولكن هذا يتنافى مع مشيئته تعالى. وبالإضافة إلى هذا الدليل المنطقي قدم برهانًا من التاريخ وقال: أنتم أيضًا تؤمنون ببعض الرسل، فأخبِرونا: هل جميع الناس آمنوا بهم؟

ثم نبّه الله المؤمنين أنهم إذا كانوا حريصين على أن يؤمن أقاربهم أيضًا بهذا الوحي فلا سبيل لذلك إلا أن يسعوا لتطهير قلوبهم، لأن الله تعالى لا يهدي أحدًا بالجبر إذا ما كان هو مصرًّا على الضلال، لأن هذا يكون إجحافًا وظلمًا بالمؤمنين، ويبطل الحكمة من البعث بعد الموت.

ثم أعاد الله تعالى قول الكفار بأن لا حقيقة للبعث بعد الموت، ثم ساق الأدلة على ضرورة البعث، موضحًا أن ما تأكدت ضرورته فلا بد من وجوده وفقًا لسنة الله الجارية.

ثم أقام الدليل على ضرورة البعث بعد الموت بذكر بعض ما يقع في العالم المادي، فقال: إن الله تعالى يبعث الشعوب في هذه الدنيا أيضًا، وهذا البعث يبدأ بهجرة المؤمنين من بلد الكافرين، وهذا ما سيحدث مع جماعة هذا النبي أيضًا. وما دام لا بد من الفصل بينهم وبين الكفار بالهجرة لرقي المؤمنين رقيًّا ماديًّا

كاملاً، فلماذا لا يفصل الله ﷻ بين الفئتين تحقيقًا للغاية العليا.. لكي تسير كل من الفئتين في طريقها الخاص بحرية تامة دونما عائق. وهذا الفصل بين الفئتين- أو بتعـــبير آخـــر - هذه الهجرةُ الروحانية ستتم بالموت. بعد هذه الهجرة يبدأ كل منهما في السير في طريقه الخاص في حرية تامة، ليحقق المؤمن الرقي الروحاني في الجنة بعيدًا عن أي عرقلة من العدو. فبرؤية ما سيحققه المؤمنون بعد الهجرة من رقـــي مادي ..سيدرك الكفار ضرورة فصل الأرواح المؤمنة من الكافرة لتحقيق الغاية التي خُلقوا من أجلها.

ثم أشار الله ﷻ إلى نتائج الهجرة الدنيوية وبيّن كيف ستؤدي هجرة المؤمنين إلى نـــزول العذاب بالكفار وغلبة المؤمنين عليهم، حيث أخبر أن هذا لن يتم بتدابير مادية، بل إن تمسكهم بالتوحيد هو وحده سيأتي بهذه النتائج كلها.

ثم أوضح أن إنكار الإنسان الآخرةَ يؤدي إلى فساد أعماله، وهذا أيضًا يشكل دليلاً على ضرورة البعث بعد الموت.

ثم قال الله تعالى: إن ما نمنح الكفار من مهلة لا يعني أننا لا نريد توطيد الدين، وإنما نفعل ذلك رغبةً في نجاة البشر. ذلك أن ظاهرة المهلة جارية حتى في نواميس العالم الطبيعي المادي أيضًا، فكيف يمكن إنكار وجودها في العالم الديني الروحاني خصوصًا وأننا نريد إنقاذ أكثر من يمكن إنقاذه.

ثم أبطلت الآية نظرية الجبر قائلة: إن تزيين السيئة للناس هو دأب الشيطان ولا يمكـــن أن يُعزى ذلك إلى الله ﷻ، لأن من واجبه سبحانه وتعالى أن يبين طريق الهدى فحسب. غير أن رحمته الواسعة تهيئ مزيدًا من أسباب الهدى للناس حيث إن المؤمـــنين بوحيه يزدادون بالعمل به نعمةً وفضلاً على الدوام، وهكذا يتضح لأولي الألباب أن الله تعالى يحب هذا الطريق، فيهتدون.

ثم رد الله ﷻ عـــلى اعتراض الكفار أن محمدًا إذا كان من عند الله حقًّا فلماذا يعارض تعاليم الأولين؟ فأخبر أن تكفير الرسل السابقين ومخالفة تعاليمهم شيء، ورفـــضُ الطقوس الخاطئة والتعاليم الرائجة المنسوبة إليهم خطأً شيء آخر تمامًا.

لأن النبي إنما يُبعث حين يقوم الناس بتشويه التعاليم الحقّة السابقة ولا يستطيعون الحفاظَ عليها، فيُحييها النبي من جديد.

ثم ضرب مثالاً رائعًا ليبرهن على أن الله وحده حقيقٌ بأن يهدي الناس، فقال: انظروا إلى الحيوانات كيف تأكل الكلأ وتنتج الحليب. الواقع أنه منتوج الآلة التي ركّبها الله ﷻ في جسم هذا الحيوان. ومثلُ أخلاق الإنسان البهيمية كمثل الكلأ، يحوّلها الله عبر آلة القانون الروحاني إلى أخلاق فاضلة نبيلة.

ثم ضرب مثالَ النحل وأخبر أنها أيضًا تعمل وفق الوحي الإلهي، وتنتج من عناصر النبات البسيطة عسلاً مصفّى، فيمكن أن تدركوا من هذا أن كل الكون يعمل بحسب قانون خفي من الوحي، فكيف تستبعدون أن يترل الوحي لتطوير أخلاق الإنسان، ويأتيَ بنتائج طيبة شافية له كما يأتي عسل النحل بشفاء للناس؟ غير أن النحل أنواع وأن العسل من حيث جودته درجات متفاوتة، كذلك البشر متفاوتون في مراتبهم، فمع أن المؤمنين يتبعون الوحي نفسه إلا أن كل واحد منهم ينتج عسلاً روحانيًا مختلفًا عما ينتجه غيره.

ثم دلّل بأسلوب آخر على ضرورة الوحي، فقال: كلما يكتب الله ﷻ لقوم الازدهار فإنه بعد مرور زمن تحتكر فئة معينة منهم كل المنافع التي يأتي بها هذا الازدهار، مما يسد في وجه الآخرين طريق التقدم، لأن الفئة المستولية على زمام الأمور لا تسمح لهم بالتقدم رغم كفاءتهم وجدارتهم، مع أن الله تعالى قد جعل الجميع شركاء في نعمه وأفضاله. فهل هناك من طريق لتغيير هذا الوضع إلا الوحي؟ إن الكبراء في ذلك العصر المظلم يدّعون دائمًا: نحن أكفأ القوم وأفضلهم ولذلك نملك زمام الأمر في قبضتنا. ولا يكون هناك من سبيل لإبطال دعواهم، اللهم إلا أن يدبر الله لإلقاء القوم في اختبار جديد، وهذا يحتّم بعث نبي. وعندما يأتي النبي ينكشف للجميع أن أهل السيادة الحالية ليسوا أكفاء لحمل مسئولية قيادة القوم لأنهم يبقون محرومين من اتباع الوحي النازل على النبي، وأما الذين يُستضعفَون فإنهم يوفَّقون لتصديق كلام الله، مما يبين أن السيادة لم تكن في أيدي

الأكفاء. وهكذا يقوم الله ﷻ بحماية حقوق البشر من جديد، فيبدأ كل إنسان في الرقي وفق كفاءاته، ويَتمّ القضاء على النظام القائم على العصبية والانحياز.

ثم يسوق القرآن الكريم دليلاً آخر على ضرورة الوحي حيث يقول: حين تبتعد الأمم عن الله ﷻ فإنها تقع في الأعمال الوثنية وتربط نفسها بمن لا يملك لهم ضرًّا ولا نفعًا، وبالتالي تُحرَم من وسائل الرقي الحقيقية. ولو لم يتم القضاء على هذا الوضع لتوقفت عجلة التقدم والازدهار.

وبعدها بيّن أن البعد عن الوحي يُلحق نوعين من الأضرار: أحدهما ما سبق بيانه أي أن البعض يأخذ زمام أمور الناس عنوةً، ولا يسمح لأهل الكفاءة الحقيقية أن يتقدموا ويبرزوا على ساحة الأحداث، وثانيهما: أن الأعمال الوثنية تدمر الكفاءات والقدرات الكامنة في القوم. والله رحيم فكيف يمكن أن يلزم الصمت على هذا الظلم، ويبطل خطّته بيده؟ إذ كيف يُستساغ أن يخلق هذه القدرات في القوم ثم يَدَعها تموت بنفسها، أو يسمح للظالمين أن يحولوا دون ظهورها؟

وبالاختصار فإن الله تعالى يكشف زيف دعاوى الكفار، لأن حكمته البالغة تقضي بأن يدمر الذين هم رأس هذه الفتنة والظلم. وهكذا فالذين لا يتلقون الدرس من وسائل الحماية الإلهية الظاهرة فإن الله ينزع منهم حمايته الظاهرة، كما أن الحماية الزائفة المتمثلة في شركائهم الباطلة أيضًا تتسبب في ذلهم وهوانهم.. في الدنيا والآخرة.

غير أنه تعالى وضّح أيضًا أنه لن يعامل سائر الظالمين معاملة واحدة، بل سوف يعاقب أئمتهم الذين أضلوا غيرهم بأشد مما يعاقب به أتباعهم الضالين.

ثم قال: أفلا يرون أن أسباب هذا الانقلاب لموجودة وبادية تمامًا، وأوّلُها الشهادة الداخلية للقرآن وهي كون تعليمه كاملاً جامعًا، وثانيها أن تعليمه يهدي إلى الرقي والفلاح، وثالثها أن العاملين به ينالون البركات والنعم فعلاً.

بعد ذلك عندما ذكر أمثلة من التعاليم القرآنية الكاملة، قال الكفار مرة أخرى إنهـــا تخالف ما ورد في الأسفار السابقة، فرد الله ﷻ عليهم بأن هذا الاعتراض سخيف وواه، لأن الوحي ينـــزل وفق متطلبات كل عصر.

ثم أخـــبر أن الكفار حين يسمعون هذا الجواب يقولون أن هذا التعليم مسروق من كتب الأولين، فرد عليهم وأثبت أن هذا الاعتراض يتنافى مع العقل تمامًا.

ثم وضح الله تعالى أنه يمكن أن يرتد البعض عن الإسلام، ولكن ارتدادهم ليس دلـــيلاً عـــلى أن القرآن الكريم لا يهب اليقين الكامل، إنما يتأكد ذلك إذا كان ارتدادهـــم بناء على دليل وبرهان. وما دام ارتدادهم يرجع إلى المصالح الدنيوية فهذا دليل على خبث باطن المرتدين لا على ضعف تعاليم القرآن.

وبعد ذلك أخبر أنه قد حان موعد حكم المسلمين، وأن ما بُشّروا به في القرآن أوشـــك على التحقق. سوف تقع حرب شديدة بين الكفر والإسلام، لينال فيها كلٌّ جزاءه وفق إيمانه.

ثم أخبر ﷻ بكلمات لا لبس فيها عن هلاك المكيين وزوال حكمهم.

ثم تحـــدث مرة أخرى عن الرحمة، وبيّن كيف أن القرآن الكريم يمثّل رحمةً لبني آدم حيث ينقذهم من قيود الطقوس الفارغة والعادات غير المعقولة.

ثم ذكّـــر أهلَ مكة بأبيهم إبراهيم وقال: إن أباكم هذا كان مسلمًا ومطيعًا لله ﷻ، فعليكم باتباع خطوات أبيكم، والعمل بأسوته.

بعـــد ذلك خاطب اليهود والنصارى وقال لهم: إنكم أيضًا قد غيّرتم دينكم، فعليكم أن تصلحوا أنفسكم ولا تزدادوا ضلالاً وغوايةً، مغترين بما آتاكم الله من نعم الحياة ومتع الراحة.

وأخـــيرًا نبّه الله ﷻ رسوله الكريم ﷺ أن نطاق دعوتك سوف يتسع ليشمل اليهود والنصارى أيضًا، لذا نؤتيك من الآن بعض الأوامر والتعاليم في شأنهم.

ثم قـــال الله ﷻ للمسلمين: كان أهل مكة وحدهم الذين يضطهدونكم إلى الآن، ولكن عن قريب سوف يبدأ اليهود والنصارى في العدوان عليكم، فيجب

أن تتمسكوا بأهداب الصبر والرحمة عند عدوانهم أيضًا، ولكن لا تحزنوا على هلاكهم حينما يقرر الله ﷻ عذابهم. كما قال للمؤمنين إن النصر سيكون حليفكم في الصراع مع أهل الكتاب أيضًا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

فلا تستعجلوه: استعجله: طلَب عَجَلتَه و لم يصبر إلى وقته، ومنه يقال: مَرَّ فلان يستعجل أي يكلّف نفسَه العجلةَ. استعجل فلانًا: سبقه وتقدَّمَه (الأقرب).

سبحانه: سبحان الله: أي أُبرِّئ الله من كل السوء براءةً (الأقرب)

يشركون: أشرك بالله: جعل له شريكًا (الأقرب)

التفسير: لقد سبق أن أخبرتُ أن الله تعالى قد قال في آخر السورة السابقة أي الحِجر: ﴿وإن الساعة لآتية﴾، والآن قال: ﴿أتى أمر الله﴾.. أي أن الساعة قد جاءت تقرع الأبواب. مع العلم أنه من أسلوب القرآن استخدام صيغة الماضي أحيانًا للتأكيد على وقوع الخبر أو على اقتراب موعده.

و﴿أمرُ الله﴾ يمكن أن يفسَّر هنا بمفهومين: الوعيد الذي تكرر ذكره في السور السالفة، أو الوعد المشار إليه في قوله تعالى: ﴿واخْفِضْ جناحَك للمؤمنين﴾؛ وكلا المعنيين ينطبق هنا في وقت واحد، حيث قيل للرسول ﷺ: لقد حان هلاك الكفار، كما آن الأوان لأن تربّي أتباعَك بشكل كامل وفي حرية تامة.

وأما قوله تعالى ﴿فلا تستعجلوه﴾ فله أيضًا مفهومان: الأول: لا حاجة لكم، أيها الكفار، أن تستعجلوا العذاب الآن، فهو قد جاء يقرَع أبوابكم؛ والثاني: كنتم تقولون للمؤمنين: أين هو نظامكم الجديد الذي وُعدتم به، فها قد حان توطيد هذا النظام، فلا داعي لأن تستعجلوه.

إن قولـــه ﷻ ﴿أتى أمر الله﴾ يبيّن أن هذه السورة شرحٌ للنبأ الوارد في سورة الحِجـــر الســـابقة وتكملـــةٌ لموضوعها. ووجود هذه السورة في هذا المكان من المصحف يكشف أن تدوين السور القرآنية قد تم وفق مواضيعها لا بحسب طولها أو قصرها.. كما يزعم بعض الذين تنقصهم المعرفة الحقيقية.

(Everymans Encyclopaedia V. ٧ P. ٥٢٤: Koran)

لقـــد نزلـــت ســـورة النحل في أواخر الفترة المكية من البعثة النبوية حين أخذ المســـلمون في الهجـــرة مـــن مكة نتيجة اضطهاد الكفار وعدوانهم عليهم، وقد تحدثت هذه السورة عن الهجرة بكلمات صريحة.

لقـــد اختلف المفسرون في تحديد هذه الهجرة: أهي تلك التي تمت إلى المدينة أم إلى الحبشة؟ فقال بعضهم إنها هجرة الحبشة. بينما قال الآخرون إنها هجرة المدينة الـــتي بعـــث عندها النبيُّ ﷺ عمرَ إلى المدينة. ويرى غيرهم أنها نفس الهجرة التي خرج فيها النبي ﷺ قاصدًا المدينة.

وعندي إنها ليست هجرة الحبشة لأنها كانت قد بدأت قبل نزول هذه السورة بعدة سنوات، وأيضا لأن الهجرة إلى الحبشة لا يمكن أن تُعتبر مصداقًا لقوله تعالى ﴿أتى أمرُ الله﴾، لأنه تعالى لم يُظهر جلاله وقهره على الكفار عند تلك الهجرة. كمـــا أن قوله تعالى ﴿أتى أمرُ الله﴾ يمثّل ردًّا على اعتراضات الكفار التي أثاروها طعنًا في سورة الحِجر، والتي أُثيرت معظمها بعد الهجرة إلى الحبشة. ولذلك كله أرى أن قولـــه تعالى هذا نبأ عن هجرة النبي ﷺ إلى المدينة عن قريب، أو إشارةٌ إلى خـــروج بعـــض الصحابة إليها إذ كان خروجهم أساسًا قويًّا لهجرة المدينة. وكـــأن قوله تعالى ﴿أتى أمر الله﴾ إيذان بأن تأثير الوحي المشار إليه في السورة السابقة سوف يظهر للعيان في فترة قريبة جدًّا.

وأمـــا قولـــه تعالى: ﴿سبحانه﴾ فالمراد منه أننا يا محمد كنا أمرناك في السورة الماضية: ﴿فسبِّحْ بحمد ربك﴾.. أي دعِ النقاش العام وانهمِكْ في تسبيح الله ﷻ وكشفِ سبوحيته على المؤمنين، فقد آن الأوان لظهور سبوحية الله في الدنيا.

ومما يشكل دليلاً آخر على وجود ترتيب وترابط في مضامين القرآن ومعارفه أن الله ﷻ وعد في السورة السابقة: ﴿وإن الساعة لآتية﴾، ثم في هذه السورة أخبر باقتراب هذا الوعد فقال: ﴿أتى أمر الله﴾. كما أنه تعالى أمر رسوله في آخر السورة السابقة: ﴿فسبِّح بحمد ربك﴾، وبشّره الآن في مستهل هذه السورة قائلاً: ﴿سبحانه﴾.. بمعنى أن جهودك التي تبذلها لإظهار سبوحية الله لن تضيع، بل قد حان أن تظهر على يدك سبوحيتُه أي براءتُه من كل ما يثار ضد ذاته تعالى من مطاعن واعتراضات. وكأن قوله تعالى ﴿أتى أمر الله﴾ رد على الاعتراضات التي كانت ستثار ضد الله تعالى في حالة عدم تحقق قوله ﷻ ﴿إن الساعة لآتية﴾، وأما قوله تعالى ﴿سبحانه﴾ فيمثّل دحضًا لما قد يثار ضد النبي ﷺ من اعتراض في حالة عدم تيسُّر الظروف التي تتيح له حريةَ العمل بقوله تعالى ﴿فسبِّحْ بحمد ربك﴾.

وأما قوله ﷻ ﴿وتعالى عما يشركون﴾ فيعني أنه ﷻ أسمى من أن تحول أعمالهم الوثنية دون نفاذ قضائه، لأن آلهتهم الباطلة لا تقدر على تغيير القرار الإلهي.

هذه الآية تكشف جليًّا الفرقَ بين وحي الله الخالص وبين افتراء البشر. ذلك أن أهل الدنيا إذا كانوا ذوي قوة ومنعة هدّدوا دائمًا بأنهم سيأتون بخيلهم ورجلهم، أو إذا كانوا ضعفاء اشتكَوا من قلة الأعوان والأنصار وقالوا: ليس معنا أحد وإلا لفعلنا كذا وكذا. وهذا ما فعَله "البهاء" الذي ادعى الألوهية، وأرجع عدمَ نجاحه إلى كونه وحيدًا قليل الأعوان والأنصار. (المبين ص ٢٨٦)

ولكن الله الحق يركّز دائمًا على كونه وحيدًا، ويسخَط على الذين يجعلون له شركاء يساعدونه، ويغضَب على الذين يزعمون أن له بنين أو بنات أو وزراء؛ مما يكشف على الدنيا قدرته حقًّا. فبينما تشكو الآلهة الباطلة من قلة الأعوان والأنصار.. يتخذ الإله الحق وحدانيتَه دليلاً على صدقه ﷻ.

يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

الروح: راجِعْ شرح الكلمات للآية رقم ٣٠ من سورة الحِجر.

التفسير: الروح هنا تعني الكلام الذي ينفخ الحياة في أهل الدنيا. كما يسمى الأمر بالنبوة أيضًا روحًا. ويُطلَق الروح على وحي الأنبياء والمأمورين لأنه ينفخ الحياة في أهل الدنيا.

علمًا أن الوحي نوعان: نوع يخصّ من يتلقاه فقط، ولا يؤمر صاحبه بنشره بين الناس، وإن جاز له أن يخبر به الآخرين؛ ونوع آخر فيه منفعة الناس، ولذلك يُؤمر صاحبه بنشره بين القوم، بل يُعَدّ مجرماً إذا لم يقم بنشره فيهم؛ وهذا الوحي يتلقاه الأنبياء والرسل، وقد أشير في هذه الآية إلى هذا النوع من الوحي، والدليل عليه قوله تعالى ﴿أَنْ أَنذِروا﴾.

وقد أشار بقوله تعالى ﴿مِن أمره﴾ إلى أمرين: أحدهما أن الملائكة لا يستطيعون إنزال الوحي بأنفسهم، وإنما يَنزلون بأمر الله تعالى ويتزلون بكلامه ﷻ الذي أراد أن يبعثهم به. وثانيهما: أن الوحي المقصود هنا ما يكون من أمر الله.. أي يكون مشتملاً على الأوامر والنواهي من عند الله، وهذا أيضًا يؤكد أن الحديث هنا يدور حول وحي النبوة الذي يتلقاه الأنبياء عليهم السلام.

ثم إن قوله تعالى ﴿مِن أمره﴾ إشارة إلى قوله ﴿أتى أمر الله﴾، وكأنه قال: إن إتياننا بأمرنا هو من سنتنا المستمرة مع الأنبياء جميعًا، فإننا نرسل إلى كل منهم الملائكةَ بوحينا الذي يشتمل على أمرنا أي على قرارنا بهلاك الكفار وازدهار المؤمنين. فما من نبي إلا ويأتي بخبر هلاك قوم ورقي قوم آخرين.

كما أن قوله تعالى ﴿مِن أمره﴾ يؤكد ضرورة الإيمان بكل نبي، لأن وحي النبوة يحتوي على الأوامر الإلهية، فإنكار أي نبي ليس إنكارًا لـــه فقط، بل هو إنكار لله الذي أنزل عليه ذلك الوحي.

وقـــد تكون ﴿مِن﴾ الواردة في قوله تعالى ﴿ينـــزّل الملائكةَ بالروح مِن أمره﴾ بعضيةً، والمراد أننا لم ننـــزل أحكامنا كلها في وقت واحد وعلى نبي واحد، بل أنـــزلـــناها على أنبياء كثيرين في عصور مختلفة بحسب حاجاتها ومقتضياتها. فلا قـــيمة لاعتراض الكفار: ما الداعي لبعث محمد رغم مجيء كثير من الرسل من قـــبل؟ فكمـــا حدث في الماضي أن مسّت الحاجة لبعث نبي رغم مجيء كثير من الأنبياء من قبل كذلك قد مسّت الحاجة لبعث محمد رغم الأنبياء السابقين.

أما العباد المذكورون في قوله تعالى ﴿على من يشاء من عباده﴾ فهم عباده الذين يعبدونه حقًّا، وليس كل واحد من البشر. وفيه تنبيه من الله ﷻ إلى أن النبوة – رغـــم كونها هبة إلهية – لا يتشرف بها إلا الذين هم عباد الله حقًّا. وكأن هبة النبوة أيضًا مشروطة بشرط معين وهو أن يكون الإنسان عبدًا حقيقيًّا لله تعالى، وهي ليست من الهبات التي ينالها الناس بدون الوفاء بأي شرط.

وقولـــه تعالى ﴿مِن عباده﴾ دليل عظيم على التوحيد، حيث وضّح أن النبوة لم توهـــب إلا لمن كان من زمرة عباد الله أي من الموحِّدين لـــه. فإذا كان الشرك جائزًا فلم لم نجد بين الأنبياء نبيًّا واحدًا كان عبدا غير مخلص لله تعالى، أي يعبد مع الله آلهة أخرى؟ فمن أقوى البراهين على وحدانية الله أنه لم يأت أي نبي كان مشركًا، فلا ندري بماذا يبرر المشركون عقائدهم الوثنية!

كما أن قوله تعالى ﴿على من يشاء من عباده﴾ إيماءة إلى أنه ﷻ لا يجعل أحدًا نبيًّا وفق رغبة الناس واختيارهم، بل يصطفيه بحسب رغبته ومشيئته هو ﷻ. وما دام الأمـــر هكـــذا فلا بد أن يختلف الناس في أمره. فلا قيمة لقول الكفار: لماذا تـــتعارض أفكارُ النبي ومبادئه مع عقائد القوم ونظرياتهم؟ إن قولهم هذا ليس إلا دليلاً على جهلهم وغبائهم فحسب.

أمـــا قوله تعالى ﴿ينـــزّل الملائكةَ﴾ فاعلم أن من معاني التنـــزيل إنزال الشيء بالتدريج ومرة بعد مرة.. وقد بين الله ﷻ بذلك أن الوحي ينـــزل على كل نبي بالـــتدريج دائمًا. وهكذا فإن هذه الآية تردّ على معارضي الإسلام – ولا سيما الكُـــتّاب النصارى – الذين يعترضون على النبي ﷺ بقولهم: إن نـــزول القرآن شـــيئًا فشـــيئًا دليل على كونه من افتراء محمد، إذ كان يؤلفه من عنده بحسب الحاجـــة. والحـــق أن قولهـــم هذا دليل على جهلهم الشديد بسنة الله مع أنبيائه الجارية على مر العصور. إذ ليس بين الأنبياء أحد عرَض على الدنيا كتابه الكامل دفعـــة واحدة. إن صحف موسى وأحداث عيسى عليهما السلام كلها تشكّل برهانًا ساطعًا على أن الأوامر والتعاليم التي أعطاها الله الدنيا بواسطة الأنبياء إنما أنـــزلها عليهم بالتدريج في فترة طويلة. فما يعترض به هؤلاء على نبينا محمد ﷺ يَرِدُ نفسه على موسى وعيسى أيضًا. ولكن الحق أن اعتراضهم باطل تمامًا، لأن التعلـــيم الإلهي.. الذي يكون مخالفًا للنظريات السائدة في العالم ويهدف القضاءَ علـــيها والـــترويجَ لعقائد جديدة.. يجب نزولـــه بالتدريج في فترة طويلة، لكي يتمكن الناس من العمل به بسهولة ويسر، ولكي يترسخ في أذهانهم بشكل جيد. وإلى هـــذا المعنى أشار الله بقوله تعالى في مكان آخر: ﴿وقال الذين كفَروا لولا نُزِّلَ عليه القرآنُ جُملةً واحدةً كذلك لنثبِّتَ به فُؤادَك ورتَّلْناه ترتيلاً﴾(الفرقان: ٣٣).. أي أن الغـــرض مـــن إنزال القرآن تدريجيًّا أن نقوّي به قلبك.. أي أن تتمكن أنت وأتباعك من استيعاب القرآن بالعمل به جيدا، وأيضًا لكي تزدادوا إيمانًا بسماع الوحي الذي يذكّركم بما قد تحقق من أنبائه السابقة. وأي شك في أن الإشـــارة إلى الأنباء السابقة المتحققة يزيد المؤمنين القدامى والجدد إيمانًا مع إيمـــانهم، ولكـــن إذا اشتمل الوحي على الأنباء من دون الإشارة إلى تحقُّقها فلا يشفي غليل المؤمنين، وإنما يظلّون محتاجين إلى كتب أخرى.

وقولـــه تعالى ﴿أَنْ أَنذِروا أنه لا إِلهَ إلا أنا فاتّقُونِ﴾ خلاصةٌ للتعاليم السماوية جمعـــاء. ذلك أنه مما لا شك فيه أن تعاليم الأنبياء تختلف في تفاصيلها، ولكنها

كـــلها تتمحور حول محور واحد ألا وهو أن الله واحد؛ وهذا هو ملخص الدين ولبُّه. ورد في الحديث الشريف عن أبي هريرة قال، قال لي رسول الله ﷺ: يا أبا هريـــرة، أَعلـــنْ بين الناس: مَن شهد أَنْ لا إلهَ إلا اللَّهُ فله الجَنة. فكان أوّلَ مَن لقيتُ عمرُ، فأخَذني إلى رسول الله ﷺ وقال: أَبَعَثتَ يا رسول الله ﷺ أبا هريرة لـــيُعلن بهـــذا بين الناس؟ قال: نَعَمْ. قال: فلا تَفعَلْ، فإني أَخْشَى أَنْ يتَّكِلَ الناسُ عليها، فخَلِّهم يعمَلون. قال رسول الله ﷺ: فَخَلِّهم (انظر مسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على أنه من مات على التوحيد دخل الجنة).

وهذا لا يعني أنه ﷺ لم ير هذا الإعلان ضروريًّا، إنما المراد أن الإعلان قد تم لمن كـــانوا قادرين على فهم مغزاه، وسوف يدركون أن (لا إله إلا الله) هو إعلان يشـــمل أحكـــامَ الشرع كلها، وأما الآخرون الذين سيخطئون فهمه فلا حاجة لإبلاغهم بهذا.

أما قولـــه تعالى ﴿فاتّقونِ﴾ فأصلُه (فاتّقوني)، وهو افتعال مِن وقَى يقي وقاية؛ والمـــراد: عليكم أن تتخذوني أنا وسيلةً لحمايتكم؛ وليس أن تخافوني كما يخاف الـــناس مـــن الأشـــياء الضارة؛ ذلك أن الله ﷻ نفسه يحبّ العباد ويحثّهم على التقرب إليه ﷻ.

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝

شرح الكلمات:

الحق: حقَّه حقًّا: غلَبه على الحق. حقَّ الأمرَ: أثبتَه وأوجبَه؛ كان على يقين منه. حَقَّ الخبرَ: وقَف على حقيقته. والحق: ضدُّ الباطل؛ الأمرُ المقضيّ؛ العَدلُ. المِلكُ؛ الموجودُ الثابت؛ اليقينُ بعد الشك؛ الموتُ؛ الحزمُ (الأقرب).

التفسير: لقولـــه تعالى: ﴿خلَق السماواتِ والأرض بالحق﴾ معنيان: الأول: أنه حـــدد لكل واحدة منهما حقَّها ونصيبَها من العمل، بمعنى أنه تعالى أناط إنجازَ

بعضِ المهامِّ بالسماوات وبعضِها الأخرى بالأرض، لكي تأتي الاثنتان من خلال التفاعل بينهما بالنتائج المنشودة.

والمعنى الآخر هو أن الله ﷻ قد خلق كل واحدة منهما بحكمة بالغة، وفيه تنبيه للإنسان أن لا شيء غير الله تعالى كامل في حد ذاته؛ فالسماء بحاجة إلى الأرض للقيام بالمهام المنوطة بها، كما أن العكس أيضًا صحيح تمامًا؛ وأن الله هو الذي سخّر كلَّ شيء كما أراد.

وبيّن بقوله ﷻ ﴿تعالى عما يُشركون﴾ أن الذي لا يؤمن بأن السماوات والأرض قد خُلقتا بالحقّ والحكمة فلا شك في أنه مشرك؛ إذ من المستحيل أن يقول أحد من العقلاء إن الله خالق الكون بلا شك، ولكنه خلقه بدون أي هدف أو غاية. ذلك أنه إذا كان الله هو خالقه فلا بد أنه خلقه بالحق والحكمة.. أي جعل لخلقه هدفًا وغايةً؛ وأما إذا قبلنا أن ليس وراء خلق الكون غاية فلا يمكن القول إن الله خالقه، وإنما نضطر للقول أن الكون وُجد بنفسه، وهذا سيعني أن كل ذرة من الكون شريك مع الله تعالى لأنها ستُعتبر عندئذ أزليةً مثلَه سبحانه وتعالى.

وقد تعني الآية أننا خلقنا السماوات والأرض بحق.. بمعنى أننا نحن الذين خلقنا المادة الأولى لهما، لذلك نملك حق التصرف فيهما. وهكذا تبطل هذه الآية زعم الذين يقولون من جهة أن الله ليس خالقًا لمادة السماوات والأرض، ومن جهة أخرى يقولون إنه تعالى هو الذي تصرف في هذه المادة الأولى وصَنَعَ منها الكون (ستيارث بركاش (ترجمة أردية) ص ٢٧٤). مع أن الذي لا يملك الشيءَ لا يحق له أن يتصرف فيه، وأن يُخضع تحت حكمه هذا الموجودَ بذاته، لأن مثل هذا التصرف ظلم وعدوان.

ثم إن مثل هذا الظن إشراك بالله تعالى، إذ يؤدي بنا إلى الاعتقاد بوجود كائناتٍ لا حصر لها منذ الأزل إلى جانب الله سبحانه وتعالى.

خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾

شرح الكلمات:

نطفة: النطفة: الماءُ الصافي قلَّ أو كثُر، تقول: سقاني نطفةً عذبةً؛ وقيل: قليلُ ماءٍ يبقى في دلو أو قِربة؛ البحرُ؛ ماءُ الرجل والمرأةِ، وجمعُه نُطَفٌ ونِطافٌ (الأقرب).

خصيم: الخصيم: المخاصمُ، جمعُه خصماء (الأقرب).

التفسير: يخبر الله ﷻ هنا أننا بعد أن خلقنا السماوات والأرض وفق خطة معينة خلقنا الإنسانَ، وأنزلنا له التعليمات كحق لنا. ورغم أننا نحن الذين قمنا بتطوير خلق الإنسان من مادة حقيرة وجعلنا فيه القوى العظيمة والكفاءات الهائلة، إلا أنه أخذ في نكران هذا الجميل، وبدأ يخاصمنا في حقوقنا وقدراتنا زاعمًا أنه حرّ، وأنه من المستحيل أن يخلق الله الوجودَ من العدم، وإنما خُلق الكون بنفسه؟ وكذلك يدّعي أن الله لم يخلق المادة الأولى للكون، وإنما تصرف فيها على سبيل الظلم والعدوان وخلَق بها الكون لنفسه! وآخر يقول: بأي حق يؤتيني الله الأوامر والتعليمات؟ أنا حر، وسوف أختار بنفسي منهجًا وقانونًا لحياتي.

كما تُبين هذه الآية أن الإنسان- رغم خلقه من هذه المادة الحقيرة جدًّا- يصاب بالزهو والغرور بنفسه لدرجة يتجاسر على الخصام مع الله تعالى من ناحية، ولكنه من ناحية أخرى يطعن في أنبياء الله الكرام قائلاً: كيف يمكن أن يصلوا إلى هذا المقام الرفيع؟ إنه يتناسى أن الله الذي خلق - من نطفة حقيرة - هذا الكائنَ المغرور بذكائه والمتخاصمَ مع الله تعالى.. لقادرٌ على أن يرفع إنسانًا وضيعًا حقيرًا فيما يبدو، ويمنحه من الشرف والكمال ما يجعله يطيع الله تعالى ويدعو الآخرين إلى طاعته ﷻ.

كما تتضمن هذه الآية الإشارةَ إلى أن المنطق السليم يرفض أن يكون الهدف من خلق السماوات والأرض خلقَ كائن كافر لنعم الله تعالى؛ كلا بل لا بد أن يكون الهدف أسمى من ذلك. وتحقيقًا لهذا الهدف السامي عندما يبعث الله تعالى أحدًا إلى الدنيا يستغرب أهلها ويتعجبون! لماذا بُعث؟

وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾

شرح الكلمات:

دِفْءٌ: دَفِئَ يدفَأ دَفَأً ودُفوءًا ودَفُؤَ يدفُؤ دَفاءةً من البرد: تَسخَّنَ ووجَد الحرَّ. الدِفءُ: نقيضُ حدة البرد. الدفء من الحائط: كنُّه، يقال: اقعُدْ في دفء هذا الحائط أي كنّه. والدفء: ما أَدْفَأَ من الأصواف والأوبار (الأقرب).

منافع: جمعُ منفعة وهي: اسمٌ من النفع؛ كلُّ شيء يُنتفع به (الأقرب).

التفسير: لقد رد الله ﷻ هنا بأسلوب جد لطيف على خصومة الإنسان في صفاته تعالى، فقال: نحن خلقناك ومع ذلك تدّعي أنك متحرّر من طاعتنا، بينما تتصرف أنت بأشياء ما خلقتَها أنت وتستغلّها لصالحك أيما استغلال، حتى إنك لا تتورع عن قتلها أحيانًا، بحجة أنك أفضل من هذه الحيوانات، فلا بأس في تسخيرها بل في ذبح الأدنى من أجل الأعلى. فلو جاز هذا المنطق فكيف يسوغ لك أيها الإنسانُ الاعتراض على حكمنا أو حكم رسلنا؟ لم لا تطبّق على نفسك المبدأ الذي تطبقه على الله ورسله؟

وهناك معنى آخر لهذه الآية وهو أن الكفار لما اعترضوا من قبل: كيف يمكن أن يُنزل الله كلامه على عبده هذا الحقير، ردّ الله عليهم: إذا شرّفنا بالنبوة مَن ترونه حقيرًا فما وجه الاعتراض والاستغراب في ذلك؟ ألم تروا أننا قد رفعناكم

إلى مقام رفيع بين المخلوقات بالرغم من أننا قد خلقناكم من نطفة حقيرة؟ وأما في هذه الآية فيرد الله ﷻ على اعتراض آخر قد يطعن به الكفار في قول الله تعالى ﴿أنْ أنذِروا﴾ قائلين: كيف يمكن أن يشمل الله بعنايته أناسًا آثمين محتقرين مثلنا، ويُـنـزل وحـيه لمصلحتنا؟ فيقول الله لهم: حينما نشملكم بعنايتنا ونهيئ لكم الغـذاء الماديّ فلا ترونه منافيًا لعظمتنا، ولكن عندما نزوّدكم بالغذاء الروحاني تستغربون وتقولـون: كيف يمكن أن يشرّف الربُ العظيم هذا الكائنَ الحقير بإنزال كلامه من أجله؟

العجيـب أن أعـداء الحـق مـا زالوا يوجّهون إلى رسلهم مثل هذه المطاعن المتناقضة. فمن جهة يقولون: كيف اختار الله هذا الشخص الحقير من بيننا؟ وإذا كـان لا بد من اختيار أحد فلِمَ لم يختر أحدًا من عِلية القوم؟ ومن جهة أخرى يقولون: إن الله ﷻ أسمى من أن يوجه عنايتَه إلى الإنسان.. هذا الكائنِ الحقير، فيشرفه بإنزال الكلام من أجله. والاعتراض الأخير يثار من قِبل الفلاسفة خاصةً، ولكن كلا الاعتراضين باطل في الحقيقة، ومتعارض مع الآخر، لأن أحدهما يدل عـلى تفاخرهم وتعاليهم على الأنبياء، بينما الآخر اعتراف منهم بحقارة شأنهم. فثبت أنهم في الواقع يريدون بذلك التهربَ من الإذعان لما ينـزل الله في الوحي من أوامر وتعليمات.

وأمـا قولـه تعالى ﴿ومنها تأكلون﴾، فقد قدّم فيه كلمة ﴿منها﴾ من أجل التخصيص. وقد يعترض على ذلك أحد فيقول: ألا يأكل الإنسان لحمَ الحيوانات الأخـرى عـلاوة عـلى لحم الأنعام، أو ألا يأكل الخضارَ، فكيف يصح هذا التخصـيص؟ والجـواب أن التخصيص يفيد الحصرَ تارةً كما يفيد الإشارة إلى الأهـم والأفضل، وقد جيء به هنا للغرض الثاني، والمعنى أن غذاءكم الرئيسي يـأتي من لحوم وألبان هذه الأنعام وما شاكلها كالبقر الوحشية والغزلان. مما لا شك فيه أن الديك والطيور الأخرى التي تصيدونها أيضًا مصدر غذائكم، ولكنها مصدر ثانوي.

لقد ذكر الله ﷻ هنا طريقين لاستهلاك الأنعام ذكرًا واضحًا: أولهما جلودها وأصوافها التي تُستخدَم اتقاءً من الحر والبرد، وثانيهما لحومها وألبانها التي تُستعمل كغذاء؛ بينما أشار ﷻ إلى منفعتها الثالثة بكلمة ﴿منافع﴾ التي قد تعني تجارة هذه الحيوانات أو استخدامها للتوالد والتناسل.

وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾

شرح الكلمات:

جمالٌ: الجَمالُ: الحُسن في الخَلق والخُلق (الأقرب).

تُريحون: أراح الرجلُ إراحةً وإراحًا: راحت عليه إبلُه وغنمُه ومالُه، ولا يكون إلا بعد الزوال. وأراح الإبلَ والغنم: ردَّها إلى المُراح (الأقرب).

تَسرحون: سرَح الراعي المواشيَ: أسامَها أي أرسَلَها ترعى (الأقرب).

التفسير: أي تعتبرون هذه الحيوانات مدعاةَ فخر وشرف لكم، وتتباهون قائلين: عندي كذا وكذا من البقر والجِمال والغنم والخيل. فما دمتم تعتبرون ما تملكونه سببَ فخر وجمال لكم، مع أنكم لم تخلُقوه، فكيف ظننتم بالله تعالى أنه خلق الإنسان ثم تركه سُدًى، حتى بدأ يطعن في الله ﷻ بدلاً من أن يسبّح بحمده ويقدّس له ﷻ، وأصبح مثارَ اعتراض على خالقه عوضًا أن يكون سببًا في انكشاف عظمته وجلاله سبحانه وتعالى؟ هلاّ فكّرتم أن الله الذي خلق الإنسان يود أن يكون مخلوقه هذا سببًا في جلاء حسنه وجماله ﷻ.. أي أن يكون الإنسان ذا خُلق ودِين حتى يقال: تبارك الله الذي خلق هذا الكائن الجميل.

من الملفت للنظر أن الله تعالى قال ﴿ولكم فيها جَمالٌ حين تُريحون وحين تَسرَحون﴾، فقدّم ﴿تريحون﴾ وهو الرجوع بالماشية مساءً، على ﴿تَسرَحون﴾ وهو إرسالها في الصباح لترعى؛ فلماذا عكَس الترتيبَ الطبيعي يا تُرى؟ ذلك أن

الله ﷻ يركّــز هنا على بيان موضوع الحسن والجَمال، والواقع أن منظر الماشية حــين رجوعا في المساء بعد الرعي يكون أجملَ منه حين خروجها في الصباح؛ ذلــك لأنها تكون لدى رجوعها أشبعَ بطنًا وأكثرَ نشاطًا بعد أن أخذت نصيبها مــن الكــلأ والتجوال في الخارج بحرية؛ ولأنها عندما تخرج في الصباح تنتاب أصــحابَها شتى المخاوف كأنْ يشرد بعضها ويضيع أو يفترسها وحش كاسر؛ ولكن عند رجوعها في المساء سالمةً يطمئنون بالاً ويشعرون في داخلهم بنوع من الفخار.

وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾

شرح الكلمات:

شِقّ: الشِقُّ: المشقة (الأقرب).

رءوفٌ: رأَف يرأَف ورَئفَ يرأَف رأْفةً: رَحِمَ أشدَّ الرحمة (الأقرب). الواقع أن الــرأفة واحد من أسباب كثيرة للرحمة، فهي في الحقيقة عاطفة الشفقة التي تتولد في القلــب عــند رؤية أحد في مصيبة أو ألم. فكون الله ﷻ رءوفًا يعني أنه لا يســتطيع يرضــى أن يــرى العــباد في الآلام، لذلــك هيّأ لهم أنواعَ المرافق والتسهيلات.

التفســير: يخــبر الله تعالى هنا أنه لولا هذه الحيوانات لتكبدتم المشقة في نقل أثقالكم. فهلا فكّرتم أن الله الذي هيّأ لسفركم المادي هذه المرافق والتسهيلات.. كــيف يمكــن أن لا يهيئ الوسائل والمرافق لرحلتكم الروحانية؟ فلم تستغربون لــدى رؤية ما هيأه الله لكم من وسائل لسفركم الروحاني، وتقولون: من المحال أن يــولي الله كائنًا حقيرًا مثل الإنسان هذا الاهتمامَ. لا شك أن قولكم أن الله أعظم من أن يتكلم مع الإنسان ليس إلا خداعًا وفرارًا من تحمل المسئولية. إنكم

تنسون أنه ﷻ إذا كان عظيمًا فإنه رءوف ورحيم أيضًا؛ والعظماء ذوو الرأفة والرحمة لا يعافون مساعدةَ الضعفاء، لأن هذا لا ينقص من عظمتهم شيئًا، بل يشكّل دليلاً على عظمتهم.

وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

شرح الكلمات:

الخيل: جماعة الأفراس لا واحد له (الأقرب).

البغال: جمعُ البَغْل وهو حيوان أهليّ للركوب والحمل، أبوه حمار وأمه فرس، ويُتوسع فيه فيطلَق على كل حيوان أبوه من جنس وأمه من آخر (الأقرب).

الحمير: جمعُ الحمار، ويُجمَع أيضًا على أحمِرة وحُمُر (الأقرب).

التفسير: جاءت كلمة ﴿زينة﴾ هنا منصوبة لكونها مفعولاً لأجله لفعل ﴿خَلَقَ﴾ المذكور من قبل.

وليست الزينة هنا الزينةَ العادية، إذ قد سبقت الإشارة إليها في قول الله ﷻ ﴿ولكم فيها جَمال﴾، بل المراد منها هنا القوة والشوكة والرعب، لأن الخيل والبغال والحمير تساعد الأمم في الحروب على إظهار القوة وبث الرعب.

يذكّرنا الله تعالى هنا أنه خلَق لنا نوعين من الحيوانات: نوع يغذّينا بلحومه وألبانه، كما يقينا من الحر والبرد بجلوده وأصوافه، ويتسبب في عزنا وشرفنا، وأيضًا يساعدنا على نقل أثقالنا من بلد إلى آخر؛ ويشتمل هذا النوع على الجِمال والبقر وغيرهما مما نستعين به في حاجاتنا الأهلية اليومية. والنوع الآخر هو ما نستعين به في حاجاتنا السياسية والحربية كالخيل والبغال والحمير.

إذن فقد ذُكرت هنا ستُّ منافع لنا في هذه الحيوانات جميعًا: الغذاء، الكساء، العز والجاه، حمل الأثقال، الركوب، وكونها مدعاةً للقوة والمنعة. وكأن الله تعالى يذكّرنا أننا قد قمنا بسد حاجاتكم المادية الستّ هذه، فكيف تظنون أننا سنتغافل عن سد ما يماثلها من حاجاتكم الروحانية؟

كما نبّه ﷻ بهذه الآيات أنكم تسخّرون هذه الحيوانات لصالحكم مع أنكم لم تخلقوها، وأما الله الذي خلقكم والذي ليس له من حاجة إليكم فتدّعون أنه لا حق له في إصلاحكم حتى تكونوا برهانًا ساطعًا على سبوحيته وقدوسيته وعظمته ﷻ؟

وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩

شرح الكلمات:

قَصْد: قَصَدَه وله وإليه: اعتزم عليه وتوجَّه إليه؛ اعتمد عليه. وقصَد في الأمر: ضدُّ أفرطَ. والقصد: استقامةُ الأمر؛ نقيضُ الإفراط. ﴿وعلى الله قصدُ السبيل﴾ أي بيان الطريق المستقيم الموصل إلى الحق (الأقرب).

جائر: جار يجور جَوْرًا: مالَ عن القصد. والجائر: الحائد عن القصد؛ الزائغ عن الطريق؛ الظالم (الأقرب).

التفسير: المراد من قوله تعالى: ﴿وعلى الله قصدُ السبيل﴾ أنه حقٌّ على الله بيانُ قصد السبيل. وقد ذكر القرآن هذا المعنى في موضع آخر في قوله تعالى ﴿إنّ علينا لَلْهُدى﴾(الليل: ١٣).

وفي هذا تأكيد أن الله ﷻ وحده قادر على أن يدل على الطريق الخالي من الإفراط والتفريط، أما ما يصِفه البشر من مناهج فلا تخلو من العيب أبدًا. وقد وضّح بذلك أن كل البشر – إلا الذي يكون تحت رعاية الله الخاصة – فيهم

نـــزعة العصبية والانحياز بشكل أو آخر، بسبب حبهم لأحد أو لبغضهم لآخر، وأن كـــل القوانين والتعاليم التي يسنّها البشر يعوزها العدل الكامل دائمًا، حيث يسلبون بها حقوق البعض ويمنحون البعضَ الآخر أكثرَ مما يستحقّ. فثبت أنه من المســـتحيل لأحد أن يسن قانونًا خاليًا من العيوب إلا الله الذي ليس بحاجة إلى أحد، بل الجميع عباده وسواسية عنده.

كم هي جلية هذه الحقيقة! إذ لا يزال الإنسان يسن القوانين منذ آلاف السنين، ولكنه يهضم فيها حقوق البعض ويمنح البعض أكثر من حقهم. يمكن أن تنظروا إلى الخلافات السياسية السائدة في العالم، فبعض الحكومات تسلب حقوق العمال وبعضُـــها الأخـــرى تعطـــيهم كـــل شيء وتنهب من الآخرين جميع حقوقهم الإنسانية. ذلك لأن الإنسان عبدٌ لعواطفه التي لا بد أن تؤثّر فيه حينما يسنّ أي قـــانون، فلا يراعي عواطفَ جميع الناس ولا مشاعرَهم، بل إنه لا يستطيع ذلك. وعلى سبيل المثال، من يميل إلى الرهبانية يرى الكفَّ عن التمتع بنعم الدنيا عملاً حسنًا، بينما الطمّاعُ في الدنيا يعتبر الرقيَّ المادي هو الحسنة بعينها. فلا يمكن إذن أن يخلو من عيب الإفراط والتفريط سوى التعليم الذي ينـــزل مِن عند مَن خلَق البشر، والذي يعلم بما في البشر من مشاعر وأحاسيس، فيراعي في تعليمه مشاعر الجميع إلى حد معقول.

لقـــد تـــبين مما سبق بيانه أنه لا بد أن يكون كل وحي سماوي متحليًّا بالمزايا الست التالية:

١- أن يـــنفع ككســـاء يقي من تأثيرات الحر والبرد، أي أن يكون خاليًا من الإفراط والتفريط؛ فلا تكون فيه برودةُ قلةِ الحب الإلهي، كما يجب أن لا تكون فيه حرارة الظلم والعدوان باسم الدين بحيث يُكره الناسَ على قبوله قسرًا؛ بل من واجـــب الوحـــي أن يولّد حب الله ﷻ في قلوب المؤمنين من جهة، ومن جهة أخرى يدعوهم لاتباع الطريق الوسط في سلوكهم.

٢- أن ينفع كغذاء، أي أن يحتوي على طاقات روحانية لازمة، بمعنى أن يكون فيه من التعاليم ما يرغّب الإنسانَ عن السيئة، ومن العقائد ما يُصلح حالته ويشحنه بالقوة الروحانية.

٣- أن يكون مجلبةً للحسن والجمال، أي أن يُضفي على العاملين به جمالاً وبهاءً حتى تشعر الدنيا بأن هذا التعليم قد أحدث في هؤلاء القوم انقلابًا طيبًا.

٤- أن ينفع كمطية، أي أن يُكسب العاملَ به معرفةً روحانية توصله إلى الله ﷻ بسرعة، فلا تبقى رحلته الروحانية شاقة عليه ولا طويلة أكثر من اللازم.

٥- أن يحمل هذا الوحي أثقال العاملين به، بمعنى أن يولد فيهم الإحساس بواجباتهم، ويفكّ عنهم أصفاد التقاليد الفارغة وأغلال العادات الضارة، حتى يتمكنوا من أداء واجبهم بحرية تامة.

٦- أن يمنح المنعة والشوكة، أي أن ينال العاملون به شرفًا وغلبة في الدين والدنيا؛ فيستتبّ نظامهم القومي الذي يعيشون في ظله في عز ووقار، كما ينالون الدرجات العلا في الآخرة.

فالكلام الذي يتسم بهذه المزايا الست يستحق وحده أن يسمى وحي الله الحق.

قد يقال هنا: أي حاجة للوحي الإلهي، فكل إنسان يستطيع أن يبحث عن الصراط المؤدي إلى الله تعالى ويصل إليه ﷻ؟

ولقد رد الله ﷻ على هذا بقوله ﴿ومنها جائر﴾.. أي أنكم بأنفسكم تسلّمون بأن بعض الطرق خاطئة تنحرف بسالكيها عن غايتهم؛ فلولا أن الله قد تولى بنفسه هدايةَ الناس إلى الطريق الصحيح لسلك كثير منهم طرقًا خاطئة وهلكوا.

الغريب أن الإنسان يقرّ من جهة أن هناك طرقًا خاطئة وعاداتٍ فاسدة وأن البعض يتبعونها، ومن جهة أخرى لا يرى أي حاجة لنزول الهدى الإلهي!

والضمير في ﴿منها﴾ راجع إلى كلمة ﴿السبيل﴾ التي تُستخدم مذكرًا ومؤنثًا أيضًا؛ ومثال استخدامها مذكَّرًا هو قوله ﷻ ﴿وإن يَرَوا سبيلَ الرشد لا يتخذوه سبيلاً وإن يَرَوا سبيلَ الغي يتخذوه سبيلا﴾(الأعراف: ١٤٧). ومثال استخدامها

كمؤنث هو قوله تعالى ﴿قُلْ هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة﴾(يوسف: ١٠٩)، غير أن بعض اللغويين يرون أن (السبيل) مذكر، ولكنه قد ورد هنا مؤنَّثًا بمعنى المحجّة (الأقرب).

وقد بيّن الله ﷻ بإرجاع ضمير ﴿منها﴾ إلى ﴿السبيل﴾ معنى لطيفًا وواسعًا ألا وهو أنه تعالى يدل الناسَ بواسطة أنبيائه على السبيل الحق في أول الأمر، ولكنهم بمرور الزمن يختلقون من هذا السبيل الحق نفسه طرقًا منحرفة، وهكذا ما تزال هناك على الدوام حاجةٌ لنزول وحي جديد؛ فلا يصح قول أحد: أي حاجة لنزول كتاب جديد رغم وجود كتاب سابق؟ فإن الناس حين يشقّون من السبيل الحق طرقًا أخرى معوجة يصبح لزامًا على الله ﷻ أن يأتي بالناس إلى طريق المعرفة الحقيقية مرة أخرى ببعث أحد من أنبيائه.

هذا، وقد أكد الله تعالى بذلك أن الأديان الحقة أيضًا تُشوَّه وتفسُد بمرور الوقت في آخر المطاف فتتسبب في الضلال، حيث يخترع الناس من السبيل الحق نفسه طرقًا جائرة معوجة. فكون أي دين حقًّا في بداية الأمر لا يشكل وحده دليلًا على كونه صالحًا للعمل في كل زمان.

ثم قال الله تعالى ﴿ولو شاء لهداكم أجمعين﴾.. أي لو لم يجعل الله ﷻ أمرَ الهدى في يده لكان هناك طريق عادل واحد هو أن يخلق الفطرة الإنسانية مجبولةً على الهدى بحيث لا يمكن للإنسان أن يسلك سبيل الضلال بأي حال. ولكنه تعالى لم يفعل هكذا، لأن هذا خلاف للحكمة، وإنما زود الإنسانَ بالقدرة على اختيار سبيل الرشد أو الضلال. وما دام الأمر هكذا فليس ثمة طريق معقول إلا أن ينزل الهدى من عند الله تعالى، فيتيح أمام الإنسان الفرصة ليتجنب طريق الغي، ويمضي في طريق الروحانية قُدمًا.

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١١﴾

شرح الكلمات:

السماء: كلُّ ما علاك فأَظلَّك؛ سقفُ كلِّ شيء وكلِّ بيت؛ رواقُ البيت؛ ظهرُ الفرس؛ السحابُ؛ المطرُ؛ المَطْرةُ الجيدة؛ العُشب (الأقرب).

تُسيمون: أسامَ الإبلَ إسامةً: رعاها؛ وقيل: أخرجها إلى المرعى (الأقرب).

التفسير: السماء هنا تعني المطر، والمراد من الآية أن الله ﷻ هو الذي أنزل المطر الذي تجدون به الماء الذي تشربون، والذي تنبت به الأشجار والعشب التي ترعون فيها الأنعام.

كان أول مخاطَبي القرآن الكريم هم العرب الذين تندر في بلادهم مياه الآبار، وكان مصدر الماء في معظم مناطق الجزيرة هو ماء المطر الذي كانوا يخزّنونه في البِرك والجِباب، ولولاها لماتوا عطشًا. كانت في مكة المكرمة نفسها بئر واحدة هي زمزم، ولكن ماءها مالح إلى حد كبير؛ وقبل حفر قناة زبيدة كان أهل مكة يعتمدون أساسًا على مياه المطر التي كانت تخزَّن في الغُدُر والجِباب، بل رغم وجود هذه القناة يعتمدون حتى الآن على مياه المطر التي يحملها البعض من هذه الجِباب إلى مكة ويبيعونها لسكانها. وأما باقي البلد فالأكثرية من سكانها تعتمد على مثل هذه المياه. ومعظم سكان الجزيرة العربية يعيشون على تربية الإبل والغنم والمعز التي طعامها الشجر والعشب والكلأ التي لا تتيسر أيضًا إلا بفضل مياه الأمطار.

هذه الآية أيضًا تشير إلى الموضوع نفسه المذكورِ في الآيات الماضية بأن الله ﷻ ما دام قد خلق لكم في العالم المادي آلاف المرافق والتسهيلات التي تستعينون بها في حياتكم، فكيف لا يهيئ لكم ما يسهّل عليكم حياتَكم الروحانية. وما دمتم

تقـــبلون منه ﷻ مرافقَ الحياة المادية بكل شوق وترحاب، فلم لا ترضون بما هيأ لحياتكم الروحانية من أسباب ومرافق. وإذا كنتم ترون أن تلبيته ﷻ لحاجاتكم المادية لا تتنافى مع عظمته، فكيف تظنون أن تلبيته لحاجاتكم الروحانية تتنافى مع عظمته وجلاله ﷻ؟

إن مَـــن يُنكر وجود الله ﷻ ظنًّا منه أن الأسباب المادية خُلقت بنفسها فمِن حقـــه أن يقـــول: ليس هناك مِن إله يهتم بهداية الناس، ولكن لا يحق لمن يؤمن بوجود إله خالق للكون والأسباب المادية أن يقول: كيف يمكن أو يحق للإله أن يهـــتم بهدايـــة البشر فيبعث إليهم الرسل وينـــزل لهم الكتب، لأن هذا القول يـــتعارض مـــع ما يعتقد به؛ والواقع أنه يستطيع أن يدرك خطأ قوله بهذا الدليل وحده، دون البحث عن أي دليل آخر.

هـــذا، وإن هـــذه الآيـــة إشارة إلى أن كل ما يوجد في الكون من أسباب إنما خُلقت في الواقع لصالح الإنسان، حتى إن الماء أيضًا لا ينـــزل من السماء إلا من أجلـــه، لأنـــه هو الذي ينتفع من هذه الأشجار التي تنبت بالماء والحيوانات التي تعـــيش عليها. فثبت أن الإنسان هو النقطة الأخيرة أي الغاية الحقيقية من خلق الكـــون كله، وأن الله تعالى إذا خلق الأسباب للرقي الروحاني للإنسان فهذا لا يـــتعارض مع عظمته ﷻ، بل لو لم يخلقها لعُدَّ منقصةً وعيبًا في حق الله ﷻ، إذ يقـــال أنه خلق هذا النظام الكوني المذهل من أجل هذا الكائن الإنساني، ولكنه ﷻ لم يجعل لخلقه غاية ملائمة عظيمة.

لقـــد تحدث الله تعالى في الآية السابقة عن الحيوانات وعن الغذاء الحيواني، وأما في هذا الآية فذكر الماء والغذاء النباتي، وقد فصّل الموضوع نفسه في الآية التالية.

يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾

التفسير: كان الحديث في الآية السابقة عن الماء، فقال الله تعالى: إن هذا الماء يشربه الإنسان، وتنبت به تلك الأشجار التي تعيش عليها الحيوانات التي بدورها تنفع الإنسان، أما في هذه الآية فبيّن الله ﷻ أن هذا الماء يُنبت أيضًا تلك الأغذية النباتية التي يأكلها الإنسان مباشرة. ومن هذه الأغذية النباتية زروع تُنتج الغلال، ومنها ثمار يجنيها الإنسان من بعض الأشجار، مثل الزيتون والنخيل والأعناب وغيرها. فالله تعالى ينبّه الإنسان أن يفكّر أن هذه النباتات والأشجار أيضًا مسخَّرة لخدمته مثل الحيوانات؟

هذا، وفي هذه الآية إشارة أيضًا إلى أن الأرض مهما كانت مزودة بقابلية الإنبات إلا أنها لا تقدر على أن تنبت شيئًا بدون ماء السماء، كذلك هو حال فطرة الإنسان، فمهما بلغ العقل الإنساني من الجودة والكمال فإنه محتاج إلى ماء السماء لكشف قواه الكامنة، ولا يمكن أن يكتمل من دونه. فالذي يعتمد على عقله وحده لكسب الرقي الروحاني مثله كمثل الذي يحاول أن يُنبت الزرع بدون الماء. مما لا شك فيه أن النبات قد يخرج بفضل التربة الندية، ولكنه لن ينبت نباتًا حسنًا مكتملاً بدون ماء السماء.

ومن الناس من يقول: ما هو الجديد الذي يأتي به الأنبياء؟ إنهم لا يقولون إلا ما هو موجود مسبقًا في الفطرة الإنسانية نفسها! وهذه الآية تمثل دحضًا لمزاعم هؤلاء أيضًا، إذ تبيّن بمثال الماء أن كون الشيء موجودًا أمر، وتنميته وكشفه للعيان أمر مختلف تمامًا. لا شك أن كل ما يأتي به الأنبياء يتفق مع الفطرة الإنسانية، ولكن من المستحيل نماء هذه القوى الفطرية بدون الوحي.. مثل قدرة الأرض على الإنبات التي لا تنكشف للعيان بدون الماء. هل يمكن لأحد أن

يقـــول: ما دام البذر موجودًا وما دامت الأرض قادرةً على الإنبات فأي حاجة للماء؟ إن الماء لا يأتي بالبذر كما لا يزيد في قدرة الأرض، ولكن الجميع يعرف أنه يساعدها على كشف قدرتها على الإنبات، إذ لا تستطيع الأرض بدون الماء كشـــف قواها الكامنة أو لا تستطيع كشفها كما ينبغي. هذا هو مثال الوحي، فإنه لا يخلق في الإنسان فطرة جديدة، ولكنه يوقظ القوى الراقدة في فطرته.

هـــذا، ومما يدل على روعة البيان القرآني أنه قد ذكر منافع الحيوانات بترتيب طبـــيعيّ تمامًا، حيث ذكر منها أولاً أهمَّها وهو الغذاء لكونه ضروريًّا جدًّا لبقاء الإنســـان، لأن المنافع الحيوانية الأخرى من كساء وركوب أقل أهمية من الغذاء وإن كانت سببًا في شرف الإنسان ومنـــزلته. ثم لدى الحديث عن المنافع النباتية قـــدّم ذكر الزروع على غيرها، لأنها مصدر أساسي وعام لغذاء الناس. ثم ذكر الزيتونَ الذي يُستخدم مع الخبز كإدام؛ ثم النخيل، لأن التمر غذاء وفاكهة أيضًا؛ وأخـــيرًا ذكَـــر العنب وغيره من الثمار، فإنها وإن لم تكن ضرورية مثل الغذاء، لكنها تحافظ على صحة الإنسان وتنمي قواه العقلية.

ولعـــل أحدًا يعترض هنا ويقول: ليس الغذاء الحيواني هو الغذاء الرئيسي للعالم، فإن هناك طبقة من الناس يعيشون على الأغذية النباتية فقط؟

هـــذا الزعم ناشئ عن قلة التدبر، لأن هؤلاء الذين يدّعون أنهم يتناولون الغذاء النباتي فقط ولا يأكلون لحم الحيوان، لا يدركون أن غذاءهم الرئيسي أيضًا غذاء حيواني. فمثلاً كل المواليد يتربون على لبن أمهاتهم؛ بل إن المولود الذي لا يرضَع أُمَّـــه أيضًـــا يـــتغذى على لبن الحيوانات الداجنة. أليست ألبان الأمهات وهذه الحـــيوانات غذاء حيوانيًّا؟ وهؤلاء الذين يزعمون أنهم لا يتناولون الغذاء الحيواني بتاتًا يستخدمون أيضًا منتجات حيوانية من لبن وزبدة. فثبت أن الغذاء الحيواني هـــو الغذاء الرئيسيّ للجميع، والذين يدّعون أنهم لا يتناولون غذاء حيوانيًّا على الإطلاق فإنهم منخدعون أو مخادعون. يمكنهم أن يقولوا إنهم لا يأكلون اللحم، ولكن من الخطأ أن يقولوا إنهم لا يتناولون أي غذاء حيواني.

وقد ختم الله ﷻ الحديث عن الأغذية بقوله ﴿إن في ذلك لآيةً لقوم يتفكرون﴾ ليشير إلى أمرين: أحدهما: أن العقل المادي كما ينمو بالغذاء المادي كذلك ينمو العقل الروحاني بالغذاء الروحاني؛ وثانيهما: لا شك أن القوى الفكرية موجودة في فطرة كل إنسان، ولكن انكشافها يتطلب تناولَ غذاء ملائمٍ، كذلك فإن القوى الفكرية الروحانية موجودة في فطرة كل إنسان، ولكن ظهورها يقتضي تناولَ غذاء روحاني مناسب. الناس سواسية، ومع ذلك ليسوا سواسية فيما يتعلق بالقوى الفكرية، فهذا يملك قوى فكرية خارقة، وذلك محروم منها. ما السر في ذلك؟ إنما السر أن هذا الأخير محروم من الغذاء المناسب. هذا هو الحال في المجال الروحاني، فكل البشر مطبوعون على حب الله ﷻ، ولكن هذا يتناول الغذاء الروحاني المناسب الذي يجلو قواه الروحانية، فيكتسب النور، أما الآخر الذي لا يتناول الأغذية الروحانية الملائمة فيظل محرومًا من هذا النور.

وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٢﴾

شرح الكلمات:

سخّر: سخَّره: كلّفه عملاً بلا أجرةٍ؛ ذلَّله. وكل مقهور لا يملك لنفسه ما يخلّصه من القهر فذلك مسخَّر (الأقرب).

يعقلون: عقَل الغلامُ يعقِل عقْلاً: أدرك. وعقَل الشيءَ عقلاً: فهِمه وتدبَّره. وعقَل البعيرَ: ثنى وظيفَه مع ذراعه فشدَّهما معًا بحبل هو العِقال (الأقرب).

التفسير: لقد أخذ الله تعالى الآن يعدّد نعمَه التي تتعلق بالجمادات. وبما أنه ﷻ يركّز هنا على ما ينمّي قوى الإنسان العقلية فقد اختار من بين هذه النعم تلك التي لها تأثير خاص في تنمية العقل الإنساني، مثل نعمة الليل والنهار والشمس

والقمر والنجوم. لا جرم أن الحديد والخشب والذهب والفضة والبرونز وغيرها من المعادن أيضًا نافعة للإنسان، ولكن ليس لها أي تأثير مباشر في العقل الإنساني، وإنما تنفعه عمومًا في مرافق الحياة من بناء أو إناء أو سلاح، ولذلك لم يذكرها الله هنا.

قد يقال هنا: إن ظاهرة الليل والنهار ليست من الجمادات فلماذا ذُكرت مع الجمادات؟

هذا صحيح، ولكن لا يمكن لأحد أن ينكر أن منافع الليل والنهار منوطة بتأثير الشمس والقمر والنجوم، لأن هذه الأجرام إنما تكشف تأثيراتها عبر ظاهرة الليل والنهار.. أي بوصول أشعتها إلينا أو انقطاعها عنا. فثبت أن ظاهرة الليل والنهار أيضًا تقع ضمن دائرة التأثيرات الجمادية.

ولو قيل: ما دام الليل والنهار دليلاً على وجود الشمس والقمر وغيرهما من الأجرام ومنافعها فما الحاجة لذكر هذه الأجرام على حدة؟ والجواب: لا شك أن ظاهرة الليل والنهار تكشف لنا تأثيرات هذه الأجرام، ولكن تأثيراتها على العالم لا تنحصر فقط فيما يظهر لنا من أشعتها التي تراها أعيننا عبر ظاهرة الليل والنهار، بل إن للشمس والقمر والنجوم تأثيرات أخرى أيضًا كطاقاتها الكهربائية والمغناطيسية وغيرها مما يكتشفه العلماء كل يوم جديد، وما لن يستطيعوا اكتشافَه أبدًا (The Heavens V.١ P.٨٢). فللإشارة إلى تأثيراتها الأخرى التي تنفع عقل الإنسان باستمرار لزم ذكر هذه الأجرام أيضًا إلى جانب الليل والنهار.

ورب قائل يقول على ذلك: فما الداعي إذن لذكر الليل والنهار؟ فقد كان حريًّا بالقرآن أن يكتفي هنا بذكر الأجرام فقط.

والجواب أن العرب ما كانوا يعرفون حينذاك من تأثيرات الأجرام إلا ما كان باديًا بواسطة الليل والنهار، بل حتى اليوم لا يعلم تأثيراتها الأخرى إلا العلماء المتخصصون، وأما عامة الناس فلا علم لهم بها؛ فكان لزامًا على القرآن الكريم–

بيانًا لتأثيراتها الكثيرة وتقريبًا للمعنى إلى عقول المخاطَبين الأوائل – أن يذكر الليل والنهار أيضًا مع ذكر هذه الأجرام.

مع العلم أن العلماء قد أكدوا من خلال تحليل الطَّيف الشمسي وجودَ معادن معينة على أجرام معينة (الموسوعة البريطانية تحت Spectroscopy)؛ وهذا يعني أن الأجرام السماوية لا تؤثر علينا بضوئها فقط بل أيضًا من خلال تأثيرات المعادن الموجودة فيها، لأن تأثيرات هذه المعادن أيضًا تنـــزل إلى الأرض وتعمل عملها على قوى الناس وعقولهم.

أما القمر فإن تأثيراته تنكشف بعدة طرق. فمثلاً هناك اعتقاد شائع في بلادنا أن الخسوف القمري الكامل يؤثر سلبيًّا على الحوامل، لذلك لا يخرجن من حجراتهن أثناء الكسوف. ويُعتبر هذا الاعتقاد على العموم ضربًا من الوهم، ولكني قد فحصت الأمر بكل دقة، ووجدت أنه بعد الكسوف القمري الكامل تضع الحوامل حملهن بآلام قاسية وبصعوبة بالغة حتى إن عديدًا منهن يتعرضن للموت. إنني لا أستطيع الجزم ما إذا كن يقاسين هذه الآلام بسبب نظرهن إلى القمر المنخسف أم بدونه، بيدَ أنني قد اختبرت هذا بنفسي مرارًا كما أخبرتُ الآخرين، فصدّقوني بعد أن شهدوا الأمر بأنفسهم. ولكن لا يمكن الجزم ما إذا كان هذا التأثير قَمريًّا محضًا وملاحَظًا في كل مرة، أم أنه يحصل بتأثير القمر والأجرام الأخرى معًا حين يكون القمر منها على زاوية أو مسافة معينة. طبعًا إن فحص هذه الظاهرة وتحديد أسبابها على أسس علمية عملٌ يخص علماء هذا المجال من رجال الفلك والنجوم؛ أما أنا فإنما أسجل هنا ما لاحظته شخصيًّا من خلال تحرياتي عن هذه الأوهام الشائعة عند العامة.

وخلاصة القول إن هذه الجمادات أيضًا تُحدث بأضوائها وأشعتها وقوتها المغناطيسية تأثيرات كبيرة على نماء قوى الإنسان، وبعض هذه التأثيرات واضح وبعضها خفي، ومنها ما هو مباشر ومنها ما هو غير مباشر. وأقصد بتأثيراتها غير المباشرة ما يقع على النباتات والحيوانات التي يستهلكها الإنسان كغذاء.

ومن تأثيرات الشمس والقمر الملموسة على صحة الإنسان أن ضوء الشمس وقت النهار يقضي على أمراض كثيرة ويزيد البدن صحة ونشاطًا (The Vitamins p. ٩٦.) ولذلك نجد الذين يعيشون قابعين ليل نهار في الأماكن المظلمة تتدهور صحتهم. كما نجد أن ظلام الليل يؤثر على الأعصاب تأثيرًا مريحًا مسكّنًا، ومن أجل ذلك يكون النوم بالليل أجلب للراحة منه أثناء النهار وبالأخص عند الظهيرة، فإن النوم عندها لا يكون غير مريح فقط بل يسبب في بعض الأحيان أمراضًا كالرشح وما شاكله. وبالاختصار إن النهار ملائم للعمل والليلَ ملائم للنوم.

هذا، ويؤثر ضوء الشمس على بعض الخضار تأثيرًا مباركًا جدًّا، بينما يترك نور القمر والنجوم في الليل على بعض الخضار الأخرى تأثيرًا قويًّا. فمثلاً الخيار تنمو بالليل بسرعة مذهلة، بحيث لو جلست بجانب حقل من الخيار لسمعت أصواتًا لها وكأنها تشق طريقها بين الأوراق. كما أن هناك أزهارًا تتفتح في الليالي المقمرة وأخرى تتفتح في الليالي المظلمة.

فكل هذه الأمور إن دلت على شيء فإنما تدل على أن الليل والنهار وهذه الأجرام السماوية تترك تأثيرًا خاصًّا في نماء أهل الأرض ورقيهم، وأنها لا تهيئ للأعين النورَ فقط، أو لا تريح بظلمتها الأعصابَ فحسب، بل لها تأثيرات واسعة أخرى. ولا بد لمن سنحت له الفرصة للتنـــزه في ليلة مقمرة أن يكون قد اختبر بنفسه كيف يحدث في ذلك الوقت هيجان غريب في الأفكار، وتصاب القوة الفكرية بإعصار شديد.

هذا، وتساعد هذه الأجرام والليل والنهار على معرفة الطرق؛ فإذا كان ضوء الشمس يُبدد الظلام بإضاءة كل الجو مبيّنًا معالم الجهات الأربع ليهتدي المسافرون، فإن القمر أيضًا ينفع بنوره في الليل مثل الشمس بالنهار، كما أن النجوم أيضًا تهدي السائرين بالليل حيث إن منازلها تساعد البحّارة خاصة في تعيين اتجاه سفنهم.

والخلاصة أن الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم كلها تلعب دورًا هامًّا في تنمية قوى عقل الإنسان وتيسير أمور حياته. ورغم أن هذه الأجرام جمادات، وأن صِلتَها بالإنسان صلة بعيدة، وأن قوة نمائها الذاتي خفية بحيث يستحيل تقديرها بعيون ظاهرة، بيدَ أنها تترك أثرًا كبيرًا على نماء النباتات والحيوانات، كما تؤثر على نماء الإنسان تأثيرًا هامًّا مباشرًا، وكذلك تأثيرًا غير مباشر من خلال النباتات والحيوانات. ومن أجل ذلك ذكَرَ الله ﷻ بعد الغذاء الحيواني والنباتي هذا الغذاءَ الخفي الذي نستمده من الجمادات ولا سيما من هذه الجمادات الكبيرة المتواجدة في جو السماء.

وهناك أمر لطيف آخر جدير بالملاحظة وهو أنه عند الحديث عن الأنعام والنبات استخدم القرآن الكريم فِعل (خَلَقَ)، وعند الحديث عن الليل والنهار والأجرام استعمل فِعل (سخَّر)! ذلك أن الإنسان يظن أنه بقوته وقدرته يجلب هذه المنافع من الحيوانات، ولا شك أن ظنه هذا باطل، فلولا أن الله تعالى خلق هذه الأشياء لما انتفع بها الإنسان؛ إلا أنه ﷻ استخدم فعل (خلق) تماشيًا مع ظن الإنسان هذا وتصرُّفه في هذه الأشياء. ولكن بما أنه لا تصرُّف للإنسان في المنافع التي تتيسر له من الليل والنهار والأجرام فقال الله ﷻ (سخّر)، ليبين للناس أن لا مناص لهم من الاعتراف بأن هذه الأشياء لا تسدي لهم خدماتها ومرافقها إلا بأمر الله ﷻ، إذ لا تصرف ولا سلطان لهم عليها بتاتًا.

لقد قال الله تعالى في ختام الآيات الماضية ﴿إن في ذلك لآيةً لقوم يتفكرون﴾، بينما ختم هذه الآية بقوله ﴿إن في ذلك لآياتٍ لقوم يعقلون﴾! ذلك أن القوة الفكرية تساعد على معرفة حقيقة الشيء القريب، وأما القوة العقلية فإنها تعين على إدراك الأمر البعيد، وبما أن الآيات السابقة كانت تتحدث عن المأكولات التي يدرك الإنسان تأثيرها في نفسه لذلك قال عندها ﴿لقوم يتفكرون﴾، أما الأشياء المذكورة في هذه الآية فتأثيرها خارجي بعيد، والاستفادة منها تتوقف على استخدام العقل، لذلك قال هنا: ﴿لقوم يعقلون﴾.

وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٤﴾

شرح الكلمات:

ذَرَأَ: ذَرَأَ اللهُ الخلقَ: خَلَقَهم. ذَرَأَ الشيءَ: كثَّره. ذَرَأَ الأرضَ: بذَرَها (الأقرب).

ألوان: جمع لون وهو: ما فصَل بين الشيء وبين غيره؛ صفةُ الجسد وهيئتُه من البياض والسواد والحمرة وغير ذلك؛ النوعُ (الأقرب).

التفسير: مِن معاني الذَّرْء الخلقُ كما ذُكر من قبل، إذن فهذه الآية تتحدث عن كل موجود في الكون من حيوان أو نبات أو جماد.

يبدأ من هذه الآية موضوع جديد حيث بيّن الله ﷻ هنا اختلاف الألوان وتأثيرها ومنافعها للناس. ما أعظمَ كلامَ الله القرآنَ الكريم! فقد بيّن دقائق الحكمة هذه في زمن كان أهله غافلين عنها تمامًا، إذ لم يُكتشف تأثير الألوان على أسس علمية إلا في العصر الحديث، فقد تمكَّن العلماء اليوم إلى حد كبير من علاج الأمراض باستخدام الأشعة البنفسجية وفوق البنفسجية وغيرها مما تم اكتشافه.

وقد فتَح علمُ تأثير الألوان بابًا جديدًا في الطب النباتي، فقد شرعوا في علاج الأمراض بمساعدة الألوان، حيث يملئون القوارير ذوات الألوان المختلفة بالماء العادي ويضعونها في الشمس ويحوّلون هذا الماء إلى دواء. لم يقم هذا العلاج بعد على أسس علمية، ولكن لا يمكن إنكارُ بعض منافعه الثابتة بالتجارب.

كما أنه من الثابت المتحقق أن شيئين مماثلين من جنس واحد يُحدثان تأثيرين مختلفين إذا اختلفا في اللون. خذوا مثلاً ثمر التوت، فإن الأبيض منه يسبب الالتهاب في الحلق، بينما الأسود منه جد نافع في معالجة مرض خطير كالخناق. كذلك الصندل الأسود والأبيض مختلفان في قوتهما وفائدتهما (خزائن الأدوية ج ٥

ص ٩٢). والحال نفسه بالنسبة لمئات الأشياء الأخرى. ولا شك أن هناك الكثير والكثير من الأشياء التي لم يكتشف العلماء بعدُ تأثيرَ ألوانها، ومع ذلك فإن ما اكتُشف إلى الآن يؤكد تأثيرَ الألوان بحيث لا يسع أحدًا إنكارُه.

وفي الطب الحديث أيضًا يعالجون بعض الأمراض الخطيرة بمختلف الألوان. فمثلاً وجدوا أن أكريفلافين (acriflavine) الأصفر ناجع في معالجة الجروح الخارجية، بينما مركوروكروم (mercurochrome) الأبيض نافع في الجروح الداخلية؛ وبالنظر إلى لون أكريفلافين (acriflavine) الأصفر خطر ببالي مرة أن اللون الأصفر له تأثير جيد في معالجة الجروح، وربما من أجل ذلك كانوا في القدم يستخدمون الكركم بكثرة لمعالجة الجروح. فقمت باستخراج لون الكركم، وآتيتُه أحد الأطباء ليقوم باختباره على مرضاه؛ فأخبرني أنه يماثل أكريفلافين الأصفر في التأثير غير أنه أقل منه قوة وفعالية. فأدركت من قوله هذا أنني لم أتمكن من استخراج جوهر الكركم بالقدر الذي تمكنتْ منه الشركةُ الألمانية التي صنعت هذا الدواء.

وباختصار فإن تأثير الألوان حقيقة ثابتة، وإن كان هذا العلم ما زال بعد في طور التقدم والاكتمال. وقد لفت القرآن الكريم بذلك الأنظارَ إلى أنه ليست الأجرام وحدها التي سخّرها الله ﷻ للناس، بل سخر لهم ألوان الأشياء أيضًا، وخلَق لرقيهم البدني شتى الأسباب بهذه الطرق الدقيقة؛ فكيف يحقّ لهم الظن أن لا داعيَ أن يهيئ الله تعالى لرقيهم الروحاني أسبابًا مماثلة بل ما هو أدقّ منها وأوسع.

كما أشار ﷻ بذكر اختلاف الألوان إلى أن الشيء الواحد يمكن أن يكون مماثلاً للشيء الآخر من الجنس نفسه، ولكنه في الوقت نفسه يختلف عنه في نواح أخرى. فمثلاً كل فرد من بني البشر إنسان، ومع ذلك ليس هناك اثنان منهم يستويان شكلاً وكفاءةً. وبالمثل فكل رأس من الإبل يسمى بعيرًا، ولكن لا يوجد بينها بعيران يتشابهان تمامًا من حيث الشكل والقوة. وهذا هو حال

النباتات أيضًا، خذوا مثلاً أشجار المانجو، فهي كلها أشجار، ولكن لكل شجرة منها هويتها وشكلها؛ والأمر نفسه ينطبق على ثمارها أيضًا. فكأن كل فرد متحدٌ مع أفراد جنسه الآخرين جدًّا ومختلف عنهم تمامًا في الوقت نفسه. والإنسان إنما يستطيع التمييز بين أقاربه، من أب وأم وولد وزوج وأخ، بفضل هذا الاختلاف في الألوان والملامح التي لولاها لصعب التمييز بين إنسان وآخر. فالله تعالى هو الذي جعل هذه الفروق الكثيرة بين شيء وآخر. وهذه الفروق دقيقة جدًّا، فاللون الأبيض مثلاً على أنواع ودرجات بحيث لا يمكن وصفها، كذلك يتنوع اللون الأسود درجات بحيث يستحيل بيانها باللسان، وإنما هي العين التي تدرك هذه الفروق الدقيقة وتميز بين شيء وآخر، أما اللسان فهو يعجز عن وصفها في معظم الأحيان.

ولقد نبه الله ﷻ هنا إلى الجانب الروحاني في هذا الفرق وقال: إن هذه الأشياء كما تختلف في ألوانها الظاهرة فإنها تختلف كذلك في ألوانها الباطنة؛ وكما أن حوائج الإنسان المادية مختلفة كذلك خلق الله ﷻ إزاءها أشياء مختلفة الألوان والتأثير. فلا أحد من البشر يستطيع الإحاطة بحاجات الإنسان المادية بشكل تام، وليس بوسع أحد منهم أن يخلق الوسائل لتغطية تلك الحاجات الإنسانية؛ ذلك لأن كل فرد من البشر يختلف عن غيره مزاجًا وحاجةً؛ فهذا ينفعه الحلو وذاك ينفعه الحامض، وهذا يحب الباذنجان وذاك يكرهه، وهذا يأكل الموز بشهية، وذاك يعاف حتى تذوقه. فطبائع البشر تختلف من حيث المزاج والذوق والحاجة اختلافًا لا حد لـــه، وقد خلق الله ﷻ إزاءها أشياء متنوعة جدًّا بحيث يمكن لكل إنسان أن يجد بينها ما يلائم طبعَه ومزاجه وحاجته. أما البشر فلا يقدرون حتى على إحصاء نواحي الاختلاف في الطبائع البشرية بَلْهَ أن يكونوا قادرين على تلبية حاجات الجميع وفق أمزجتهم المختلفة وأذواقهم المتباينة؛ وإنما الله وحده القادر على ذلك، فهو الذي خلق الناس بألوان وأمزجة وميول شتى، ثم خلق إزاء ذلك أشياءَ ذات أنواع وألوان شتى ليسدّ بها حاجاتهم المتنوعة. ونظرًا إلى هذا فلا

تؤخذ كلمة ﴿أَلْوَانُهُ﴾ هنا بمعناها العادي فقط، بل أيضًا بمعنى الأنواع والأقسام، وقد سُجّل هذا المعنى في شرح الكلمات من قبل.

فالله ﷻ يلفت بذلك الأنظارَ إلى أنه هو الذي خلق الأشياء صنوفًا وألوانًا ليسد بها حاجاتكم المختلفة مراعيًا شتى رغباتكم وميولكم، وما كان لكم أن تسدّوها بأنفسكم أبدًا؛ فكيف تظنون أن بإمكان البشر أن يخترعوا تعليمًا ينفع الجميعَ على السواء رغم ما يوجد في قواهم الخُلقية من تفاوت واختلاف. كلا، إنما الله وحده الذي يقدر على تلبية حاجاتهم المختلفة، فهو الذي خلقهم بهذه الطبائع والأمزجة والميول المتباينة، وهو الأعلم بحاجاتهم المختلفة. أما ما يخترعه الإنسان من منهج وتعليم فلا بد أن يكون خاضعًا لأهوائه ورغباته هو، وإذا قامت مجموعة منهم واقترحوا أي منهج وقانون فلا بد أن يكون مشوبًا بشوائب أمزجتهم وميولهم فقط. وإنما الله وحده الذي يمكن أن يُنـــزل تعليمًا يراعي ميول البشر كافة، ويلبي مقتضيات الفطرة البشرية كلها، ويغطي حتى الحاجات الخفية أيضًا. فثبت أنه لا بد من نزول الوحي لرقي الإنسان روحانيًّا، إذ ليس بوسع البشر أن يلبّوا حاجاتهم الروحانية بمساعدة عقولهم وحدها، وإذا حاولوا ذلك فسيكون في نطاق محدود جدًّا مما لن يسد حتى حاجات شخص واحد بشكل كامل، كما لن يلبي بعض حاجات الجميع.

وختم الله ﷻ هذه الآية بقوله: ﴿إن في ذلك لآيةً لقوم يذّكّرون﴾ لأن سد حاجات البشر ذوي الألوان المختلفة قضية أخلاقية بحتة، وهي بالطبع وثيقة الصلة بالذكر والنصح.

وقد لا تهدف كلماتُ (يتفكرون، يعقلون ويذّكّرون) الواردة في نهاية كل من هذه الآيات الإشارةَ إلى موضوع كل واحدة من الآيات على حدة، وإنما تكون جميع هذه الكلمات ذات صلة بفحوى الآيات كلها معًا، وجاءت بهذا الترتيب بحسب درجاتها الطبيعية. فقد ذكر الله تعالى التفكرَ أولاً لكونه أول وسائل الإصلاح، لأن الإنسان حينما يميل إلى الخير أو الشر يبدأ في التفكير أولاً؛ وحين

ينضج فكره ويكتمل يتولد فيه العقل.. بمعنى أنه يكف نفسه عن ارتكاب الشر، ويشرع في إصلاح أعماله؛ وتليها المرحلة الثالثة أي التذكر حيث يتأصل الخير في الإنسان، فيتذكر واجبَه عند كل خطوة، دون أية حاجة إلى مذكِّر خارجي يردعه عن المعاصي، وإنما يتذكر ويتّعظ تلقائيًّا، ويمسك بمبدأ الخير دومًا، حيث تصبح الصالحات طبيعة ثانية له.

وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾

شرح الكلمات:

طريًّا: طَرِيَ الغصنُ واللحم والثوب يطرَى وطَرُوَ يطرو طَراوةً وطَراءةً وطَراءً: كان طريًّا (الأقرب).. أي كان طازجًا.

حلْيَة: الحلية: ما يُزيَّن به من مصوغ المعدنيات أو الحجارة الكريمة، والجمعُ الحُلِّيّ (الأقرب).

الفُلك: السفينةُ يذكَّر ويؤنَّث (الأقرب).

مَواخر: جمعُ ماخرة. مخَرت السفينةُ: جرَت تشقّ الماء مع صوت؛ وقيل: استقبلت الريحَ في جَريتها. ومخَر السابحُ: شقّ الماءَ بيديه. والفُلك المواخرُ: التي تشق الماء مع صوت (الأقرب).

التفسير: كان الحديث في الآيات السابقة عن النعم البرّية أو التي يمكن أن ينتفع بها الإنسان وهو في البر، وأما الآن فذكر الله ﷻ البحر وكونه مسخَّرًا للإنسان.

وهنا أيضًا استخدم الله تعالى كلمة التسخير للبحر، لأنه لا سلطان للإنسان على البحر، وإنما ينتفع به فقط.

وجدير بالملاحظة هنا أنه لدى الحديث عن تسخير الليل والنهار والأجرام السماوية قد أضاف الله ﷻ كلمة ﴿بأمره﴾، ولكنه لدى الحديث عن تسخير البحر لم يضف كلمة ﴿بأمره﴾! وهذا لا يعني أن تسخير البحر لا يتم بأمر الله ﷻ، وإنما سببه أن الإنسان لا يتكبد مشقة ولا عناء في الانتفاع من الأجرام الفلكية، وهكذا تكون هذه الأشياء مسخَّرات للإنسان بأمره تعالى كليةً، وأما فيما يتعلق بالبحر فلا بد للإنسان من بذل المجهود حتى ينتفع من منافعه، كأن يصنع السفينة ويحيك المصيدة، ولذلك لم يقل الله هنا ﴿بأمره﴾، وإلا فأي شك في أن كل شيء يتم بأمره ﷻ؟!

إن البحر أيضًا وسيلة كبرى لسد حاجات البشر. إنه يحتفظ بكثير من الكنوز التي لا يمكن أن تظل مصونة بأي طريق آخر. وعلى سبيل المثال يدّخر البحر المياه التي تحملها الشمس بأشعتها على شكل بخار. كما أن البحار تسهّل السفرَ ونقلَ البضائع من مكان إلى آخر، لأن السفر في البحر أقل كلفة إلى حد كبير من السفر على اليابسة، وتستطيع البلاد الواقعة على شواطئ البحار أن تحقق تقدمًا سريعًا وكبيرًا في السياسة والتجارة، لأن البحر لا يقع في قبضة العدو بالسهولة التي تقع بها اليابسة في يده. إذن فالبحر وسيلة لحماية حرية الناس أيضًا.

فقد نبّه الله ﷻ بضرب مثال البحر أنه خلقه أيضًا ليسد به حاجاتكم العديدة، حيث يغذيكم لحمًا طريًّا من السمك. أفليس عجيبًا أيها الناس أن يزودكم الله بأنواع التسهيلات المادية في رحلاتكم البرية والبحرية، بينما يتغافل عن تسهيل رحلتكم الروحانية؟ ثم أليس من المستغرب أنكم تَقبَلون بكل بشاشة وابتهاج ما يمنحكم الله ﷻ من المرافق المادية، ولكنه تعالى حين يهيئ لكم المرافق الروحانية ترفضونها قائلين: ما الداعي أن يهيئ الله الأسباب لرقينا الروحاني؟

كما أن هذه الآية تذكّرنا أنه بالرغم من أن الماء يسد حاجات البشر وأنه موجود في الأرض على شكل بحار، إلا أنه ليس بوسع الإنسان أن يستخدم هذا

الماء سواء لشفاء غليله أو لسقاء زرعه، ولكن الله ﷻ يهيئ للإنسان من هذا الماء نفسه غذاء عالي الجودة كالسمك؛ كما أنه تعالى يقوم بتصفية هذا الماء حيث يرفعه بواسطة أشعة الشمس إلى أعالي الجو ليصبح صالحًا لشرب الإنسان. مما يعني أن مجرد وجود الحقائق في الدنيا لا يسمن ولا يغني من جوع، وإنما تنفع هذه الحقائق فقط إذا قام الله ﷻ بتنقيتها وتصفيتها من خلال الوحي، وجعلها صالحة لاستخدام روح الإنسان.

ثم قال ﷻ ﴿وتستخرجوا منه حِلْيَةً﴾.. أي تتولد اللآلئ التي تلبسونها كحُليّ من هذا الماء نفسه الذي لا يصلح للشرب؛ كما تمخر فيه السفن التي تسهل بها أسفاركم، وتزدهر بها تجارتكم.

والملفت للنظر أنه تعالى قال من قبل عن الأنعام إنها تحملكم وتحمل أثقالكم، وقد أشار هنا إلى هذا المعنى نفسه لدى الحديث عن السفن. والواقع أن نقل البضائع عبر البحر يتم بتكلفة زهيدة بحيث يستحيل هذا عبر اليابسة، ومن أجل ذلك تجدون تجارة سكان شواطئ البحار أكثر ازدهارًا.

وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾

شرح الكلمات:

ألقى: ألقاه إلى الأرض: طرَحه. وألقى إليه القولَ وبالقول: أبلغَه إياه. وألقى المتاعَ على الدابة: وضَعه. وألقى عليه القولَ: أملاه، وهو كالتعليم. وألقى فيه الشيءَ: وضَعه. وألقى إليه السمعَ: أصغى. وألقى إليه خيرًا: اصطنعه عنده (الأقرب).

رواسي: الرواسي: الجبال الثوابت الرواسخ (الأقرب).

تميد: ماد الشيءُ: تحرَّك وزاغَ، يقال: مادتْ به الأرضُ: دارتْ. وماد السرابُ: اضطرب (الأقرب). فالمراد أن الله تعالى قد جعل في الأرض الجبال الثابتة لئلا تضطرب الأرض بأهلها.

التفسير: لقد استخدم القرآن الكريم هنا فعل ﴿ألقى﴾ وذكر بعده ثلاثة مفاعيل به هي رواسيَ وأنهارًا وسبلاً؛ ومن معاني الإلقاء الطرح، فكيف يصح أن يقال إن هذه الأشياء الثلاثة قد أُلقيتْ مع أن الجبال قد خرجت من باطن الأرض، والأنهار هي التضاريس التي يجري فيها الماء ليصل من مكان إلى مكان، والسبل هي الأماكن الذي يطرقها الناس لدى السير فيها؟

لقد رد البعض على هذا بقولهم: إن فعل (ألقى) متعلق بالجبال فقط، ولكنه استُخدم للأنهار والسبل أيضًا بمعنى (جعَل)، والمراد أنه ﷻ ألقى في الأرض الجبالَ وجعل فيها الأنهار والسبل (فتح البيان).

مما لا شك فيه أن العرب تستخدم بعض الأحيان فعلاً واحدًا لشيئين مختلفين على سبيل المشاركة كقول الشاعر:

قالوا: اقترِحْ شيئًا نُجدْ لك طبخَهُ قلتُ: اطْبُخوا لي جُبــةً وقميصًا

(كليات أبي البقاء، فصل الميم)

فقد استخدم المضيف في سؤاله فِعلَ "الطبخ" للطعام، فردّدَ ضيفُه الفعلَ نفسه للجبّة والقميص أيضًا.

غــير أن المشكلة تبقى على حالها فيما يتعلق بفعل الإلقاء في حق الجبال. فهل يصــح القول إنه تعالى ألقاها في الأرض من الخارج؟ مع أن علم طبقات الأرض يؤكد أن مادة الجبال خرجت من الأرض نفسها، و لم تُلقَ فيها من الخارج.

(The Text Book of Geology p. ١١).

لذلك لا أرى داعيًا لاعتبار فعلٍ محذوف للأنهار والسبل، بل نعتبر ﴿ألقى﴾ بمعنى (جَعَلَ)، خاصة وأن القرآن يؤيدنا في ذلك حيث استخدم في أماكن أخرى فعل (جَعَلَ) لكل من الجبال والأنهار والسبل. فقال الله ﷻ عن الأنهار ﴿وجعَل

خِلالَها أَنهارًا﴾(النمل: ٦٢)، وقال عن الجبال ﴿وجعلنا فيها رواسيَ﴾(المرسلات: ٢٨)، وقال عن السبل ﴿وجعلنا فيها فِجاجًا﴾(الأنبياء: ٣٢).

فثبت أن إلقاء الجبال في الأرض لا يعني أنه ﷻ أتى بها من خارج الكرة الأرضية، بل إن الإلقاء قد استُخدم هنا ليعطي معنى خاصًّا آخر لغويًّا أو مجازيًّا. وحينما ننظر إلى معانيه اللغوية – المذكورة أعلاه – فلا نرى أيًّا منها ينطبق هنا، فلا مناص لنا إلا أن نقول إن فعل ﴿ألقى﴾ قد ورد هنا بالمعنى المجازي.

ولو سُئلتُ: ما هو المعنى المجازي الذي أراد الله إبرازه باستخدام فعل ﴿أَلقَى﴾ مكان (جعَل) في بعض المواضع من القرآن الكريم.. قلتُ: إن المعنى الحقيقي للإلقاء هو طرح الشيء، والفرق بين الطرح والوضع هو أن ما تضعه من شيء فإنه يصل إلى مكان معين، ولكن ما تطرحه فإنه يتناثر هنا وهناك، حتى إننا في بعض الأحيان إذا أردنا التعبير عن توافُر شيء في مكان بكثرة قلنا: كأن أحدًا نثره هناك، أو أن ذلك الشيء مبعثر هناك. وعندي هذا هو المعنى الذي أراد الله إبرازَه باستخدام فعل ﴿ألقى﴾.. أي أنه تعالى قد خلق الجبالَ والأنهار والطرق في كل منطقة وكل قطر وبلد. وبالفعل فقد أُوتي كلٌّ قطر من الأرض نصيبَه من الجبال والأنهار والسبل، وكل بلد من العالم يتمتع بهذه النعم؛ وكأن الله ﷻ قد نثر هذه الأشياء نثرًا، فوقعت هنا وهناك في كل مكان. والواضح أن هذا المعنى لا يمكن التعبير عنه باستخدام فعل (جعل) وإنما هو ممكن بفعل ﴿ألقى﴾.

وهذا المعنى يمثل برهانًا على سعة المعارف القرآنية؛ ذلك أنه لما نزل القرآن الكريم لم يكن جزء من العالم – أعني القارة الأمريكية وأستراليا وغيرهما – قد اكتُشف بعد؛ كما كانت أقطار عديدة من العالم المعروف مجهولةً أو شبه مجهولة للناس مثل كثير من الجزر والمناطق الوسطى والجنوبية من أفريقيا. فإعلان القرآن الكريم في ذلك الزمن بأن نعمة الجبال والأنهار والطرق ليست خاصة ببلد معين أو منطقة واحدة من العالم، بل لقد تم توزيعها على كل قطر من العالم.. يشكّل دليلاً على أن الذي نزل عليه القرآن لم يعلم هذه الحقيقة إلا بإعلام من الله

تعالى. واليوم، وبعد أن تم اكتشاف الدنيا كلها تقريبًا، قد تجلى للعالم أن هذه النعم توجد في كل القارات والأقطار، وأن كل الدنيا تتمتع بها.

فلكي يكشف القرآن الكريم هذه الحقيقة المجهولة استخدم هنا فعل ﴿ألقى﴾ لهذه الأشياء الثلاثة في موضع، بينما استخدم لها في مواضع أخرى فعل (جعَل) تبكيتًا لبعض الحمقى الذين قد ينخدعون بفعل ﴿ألقى﴾ فيعترضون على القرآن الكريم بأنه يدّعي بأن هذه الأشياء أُلقيت على الأرض من خارجها.

وقد يثار هنا سؤال آخر وهو أن الجبال والأنهار إنما تكونت بسبب العوامل الطبيعية كما هو معلوم، ولكن السبل يصنعها الناس، فلماذا ذكرها القرآن الكريم هنا؟ والجواب: ليست السبل هنا بمعنى الطرق التي يشقها الإنسان بيده، فإنها لموجودة في كل مكان حتى في المدن أيضًا، وإنما يدور الحديث هنا فقط عن الطرق التي تُخلَق بالعوامل الطبيعية أي بسبب الجبال والأنهار والغابات مثلاً؛ ومثل هذه الطرق هي التي تكثر عادةً وينتفع بها الناس، ولاسيما في قديم الزمان. خذوا مثلاً الحدود الهندية والأفغانية الممتدة إلى مئات الأميال، فمعظم هذه المساحة الكبيرة الشاسعة خالية من الطرق، وإنما هناك بعض الطرق فقط على شكل ممرات تكونت بحسب طبيعة الجبال؛ والأمر نفسه ينطبق على التخوم بين الهند والصين وبورما، بل هكذا الحال في كل العالم.

إن مدّ الطرق في المدن يتوقف على خيار الإنسان، ولكنه لا يملك خيارًا لشق الطرق بين منطقة وأخرى وبلد وآخر، وإنما يتوقف هذا على السهولة الطبيعية المتمثلة في الأنهار وممرات الجبال وحافات الغابات. فلم يزل الإنسان منذ القدم يسلك هذه الدروب الطبيعية، رغم أنها لم تكن من قبيل الطرق التي مهّدها الإنسان، وإنما سلكها الناس لسهولتها الطبيعية. ولا تزال هذه الدروب مطروقة منذ آلاف السنين. لقد مرت بها قوافل التجار كما طرقتها جحافل الغزاة عبر التاريخ الإنساني. إن دراسة الحملات التي شنّها الغزاة الأجانب على الهند تبين أنها كلها تمّت عبر بضع ممرات ضيقة تقع على الحدود الشمالية (تاريخ إقليم

السرحد ص ٥٢). وعندما هاجر الشعب الآري إلى القارة الهندية دخلها وانتشر فيها عبر هذه الطرق الطبيعية نفسها المتكونة على شواطئ الأنهار الجارية في منطقة البنجاب ثم على ضفاف النهرين الغانج وجمنه، أو عبرَ ممرات جبال الهملايا وغيرها، أو على جوانب الغابات الكجلية. وفي القديم كان من الضروري أن تكون للطريق معالم طبيعية حتى يتمكن السائرون عليها من تعيين المسافة وتقدير الجهة والحصول على الطعام، ولذلك كان طبيعيًا أن يسافروا على العموم في سفوح الجبال، وعلى حافات الغابات، وعلى ضفاف الأنهار؛ حيث كانت هذه الأشياء بمثابة طرق طبيعية تربط أهل بلد بسكان بلد آخر.

إذن فكلمة ﴿سبلاً﴾ تشير إلى هذه الطرق الطبيعية، وليست إلى الطرق المصطنعة التي تربط بين مدينة وأخرى.

هذا، وإن ما سبق بيانه يوضح أيضًا الحكمةَ وراء ذكر القرآن الكريم هذه الأشياء معًا.

كما قد يكون المراد من ﴿سبلاً﴾ الوديان التي تجري خلالها الأنهار. فلو لم يخلق الله ﷻ هذه التضاريس الضيقة التي يمر بها الماء منكمشًا لغطت المياه وجه اليابسة كلها، و لم تعد الأرض صالحة لعيش الإنسان.

هناك تساؤل آخر يجب الرد عليه: ما الحكمة في ذكر هذه الأشياء منفصلةً عن النعم السالفة الذكر؟

والجواب أن الله تعالى قد تحدث من قبل عن شتى النعم حديثا عامًا، أما الآن فتحدث خاصة عن الأشياء التي تعمل كخزينة ومستودع للنعم الأخرى. فالجبال تحتفظ بذخائر المياه وتدّخر الأشجارَ والأعشاب، بينما تأخذ الأنهار المياهَ من الجبال وتمد بها مختلفَ أنحاء الأرض طوال السنة؛ وأما السبل الطبيعية فتساعد الناس على الوصول إلى هذه النعم للتمتع بها. فلو كان الجبل تَلّةً كبيرة عالية و لم يكن به مرتفعات متدرجة لما استطاع الإنسان الوصول إلى قمته. ولو كانت الأنهار ماءً منبسطًا على سطح الأرض ما نفع الناسَ، بل لجلب عليهم الضرر

بتغطيته الأراضي الصالحة للزراعة، وبعرقلته سيرَهم على الأرض. فثبت أنه إنما يمكن الانتفاع من الجبال والأنهار إذا كان ارتفاعها أو انتشارها بوضع معين، وأن تكون هناك طرق بجانبها توصل الناس من مكان إلى آخر للتمتع بهذه المنافع.

وأما علاقة هذه الآية بما قبلها فهي كالآتي:

١- يعدّد الله ﷻ في هذه الآية أيضًا نعمَه على البشر كما فعل في الآيات السابقة فيقول: ما دام قد خلق كل هذه الأسباب لمنافعكم المادية، فكيف يمكن أن يغض النظر عن حاجاتكم الروحانية؟

٢- إن التدابير الإنسانية تسد حاجات زمن محدود فقط، وإنما الله وحده القادر على أن يدبر ذخائر أبدية تلبي المتطلبات المتجددة في أي زمن وعصر؛ إذ حتَّامَ يمكن للبرك والجباب أن تزوّد الناسَ بالماء؟ وإنما هي الأنهار الطبيعية التي تمدّهم بالماء طوال السنة، وتروي قطرًا بعد قطر. ثم إنما هي الجبال التي تغطي حاجات البلدان، وتهيئ لأهلها على مدار السنة ما يحتاجونه من صنوف الأعشاب الطِّبّية والأزهار والثمار وذخائر الخشب التي لا تكاد تنتهي. ثم إن هذه السبل الرئيسية هي التي تمد جسور الاتصال بين أهل قطر وآخر. كذلك تمامًا - يقول الله تعالى- تقتضي حاجاتكم الروحانية، أيها الناس، نزولَ وحي سماوي لا يغطي حاجات طبقة معينة منكم أو أهل عصر محدد فحسب، بل يلبي مقتضيات أهل العصور كلها على تفاوت طبائعهم ورغباتهم وحاجاتهم، ويمكّنهم من طيّ المسافة الروحانية.. بمعنى أن ذلك الوحي قادر على إيصالهم من عصر نبي إلى عصر نبي آخر.. أو بتعبير آخر يكون في الوحي قدرة التطور بالناس حيث يمكّن الفطرةَ الإنسانية من السفر من قطر روحاني إلى قطر روحاني آخر، أي يؤهّلها لقبول تعليم النبي المقبل. إذ كيف يمكن للإنسان أن يعرف مدى التطور الذي سيحرزه العقل الإنساني خلال القرنين المقبلين مثلاً حتى يدبّر بحسبه ما ينير به عقولَ الناس في تلك الشُّقّة الزمنية؟ إنما يمكن طيُّ هذه المسافة بالسير على المنهج الإلهي الذي لا ينفك يطوّر العقل الإنساني ويأخذه دومًا إلى الأمام وعلى طريق

واحد. ومن أجل ذلك نجد شتى الفلسفات الإنسانية لا تمضي قُدُمًا باستمرار، بل تتقدم مرة ثم ترجع القهقرى إلى فلسفة قديمة بمئات السنين؛ ولكن التعاليم التي ينـــزلها الله ﷻ تأخذ العباد بواسطة الأنبياء على منهج واحد قُدمًا، ولا تضطرهم إلى التقهقر ولو مرة واحدة.

وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿١٦﴾

التفسير: وكلمة ﴿علامات﴾ أيضًا مفعول به لفعل ﴿ألقى﴾ الوارد في الآية السابقة. وقد أشار بها إلى أن الكرة الأرضية ليست متشابهة الشكل ولا متساوية السطح في كل مكان، بل جعَلها الله ﷻ بين مرتفع ومنخفض، وبحر ويابس، وغابة وبرية، وجعل فيها فروقًا كثيرة يستطيع بها الإنسان معرفة طريقه واتجاهه. فلو أن الأرض كلها كانت على طراز واحد لبقي الإنسان طوال الحياة دائرًا في مكان واحد كحمار المِعصرة.

هذا فيما يتعلق بالوسائل الأرضية التي تساعد على معرفة الطريق، ولكن هناك وسيلة سماوية أيضًا تساعد السائرين على معرفة الطريق في ظلمات الليل ومتاهات البحر ألا وهي النجوم.

وبالمثل فقد جعل الله ﷻ في الرحلة الروحانية أيضًا علامات أي معالم واضحة ومنازل مميزة يستطيع السالك برؤيتها معرفةَ الجهة التي يتوجه إليها، وما إذا كان يتقدم أو يتأخر أو ينحرف؛ وكذلك جعل للرحلة الروحانية النجومَ أي الأنبياء الذين يهتدي بهم السالك في سيره الروحاني. وبما أن الأنبياء جميعًا من مصدر واحد فكل نبي يساعد السالكين من كل زمن في رحلتهم الروحانية. وكما أن النجم يدلّ بمقامه ومنـــزله على وجود النجم الآخر كذلك ينبئ كل نبي في تعليمه عن مجيء النبي المقبل، فلا يبرح السالكون يزدادون في إيمانهم باستمرار. لقد نبّأ موسى عليه السلام بمجيء النبي الذي أتى بعده، وهذا أخبر بظهور من يُبعث

بعده وهلمَّ جرًّا؛ وكأن كل نجم روحاني لم يزل يدل على النجم التالي، وفي الأخير دلت هذه النجوم الروحانية كلها على الشمس الروحانية أي محمد رسول الله ﷺ، مما سهّل للإنسان القيامَ بهذا السفر الروحاني والوصول إلى مركز الروحانية.

أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٨﴾

التفسير: قال البعض: كان ينبغي أن يقال هنا: أفمن لا يخلق كمن يخلق، لأنهم عند عقد المقارنة يذكرون الضعيف قبل القوي، فيقولون مثلاً: هل يكون الطفل كالبطل، ولا يقال: هل يكون البطل مثل الطفل؟

هذا الاعتراض كان معقولاً جدًّا لو كان الغرض منه المقارنةَ في القوة. فقد سجّل العلامة الزمخشري في تفسيره هذا الاعتراض، ثم حاول الرد عليه قائلا: "حين جعلوا غيرَ الله مثلَ الله في تسميته باسمه والعبادة له وسوَّوا بينه وبينه، فقد جعلوا الله من جنس المخلوقات وشبيهًا بها، فأنكر عليهم ذلك بقوله ﴿أَفَمَنْ يخلُق كَمَنْ لا يخلُق﴾" (الكشاف).

وعندي أن هذا الجواب ليس قويًّا بما يكفي، وأنه يمكن الرد على هذا السؤال بالنظر إلى سياق الآيات السابقة، الذي ما زلت أركز عليه لدى تناولي موضوع الربط بين هذه الآيات. إن الموضوع الذي يناقَش هنا هو: هل هناك داعٍ ليُنـــزِل الله ﷻ وحيه للعباد؟ لقد زعم المشركون أن إنـــزال الوحي للبشر يتنافى مع عظمة آلهتهم، ولكن الله تعالى يعلن: ليس الأمر هكذا، بل الواقع أن آلهتهم الباطلة لا تقدر على إنزال الوحي أبدًا، لأنها لم تمنح أحدًا قط أية نعمة مادية، ولا تستطيع أن تعطيه أية نعمة روحانية أيضًا؛ أما الله تعالى فهو قادر على إنزال الوحي، فلا تشابُهَ إذًا بين الله تعالى وبين آلهتهم. إنه تعالى كما قد آتاكم النعم الدنيوية فإنه يمنحكم النعم الروحانية أيضًا. فهل تريدون لله ﷻ أن يصبح عاطلاً

عن أي قدرة مثل آلهتكم الباطلة؟ كلا، إنه إله حي قوي قادر. فما دام قد خلق آلاف الأسباب لرقيكم المادي.. فكيف يمكن أن يقصّر- مثل آلهتكم - في هداية العباد إلى طُرق رقيهم الروحاني. إن آلهتكم لا تحرم العبادَ من الوحي بسبب عظمتها، وإنما لعجزها وقلة حيلتها؛ ولكن الله ﷻ ليس عاجزًا، ولذلك كان ولا يزال يُنـــزل وحيه للعباد. والآية التالية أيضًا تؤكد هذا المعنى.

وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٨﴾

التفسير: أي ما الذي يمنع الله تعالى من إنزال النعم الروحانية أيضًا على العباد، ولماذا يصير مثل آلهة المشركين الباطلة ويبقى صامتًا كالأصم، ما دام ﷻ قد أنزل على العباد نعمه المادية بهذه الكثرة؟

ثم قال تعالى ﴿إن الله لغفور رحيم﴾.. أي لو لم ينـــزل الهدى عبر الوحي فكيف يتم الغفران للضعفاء المقصّرين، وكيف يتم إعزاز الأكفاء المجتهدين؟ فثبت أنه لو لم ينـــزل الهداية لم يَعُدْ غفورًا رحيمًا، ومن أجل ذلك لا يقصّر في إنزالها.

وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿١٩﴾

التفسير: والآن يسوق القرآن الكريم دليلاً آخر على أن البشر أو الآلهة الباطلة لا يقدرون على تزويد الناس بالهدي الملائم، وإنما الله وحده القادر على ذلك؛ فقال: إنه ﷻ يعلم ما عندكم من قوى ظاهرة وخفية، وأيضًا ما يتولد في قلوبكم من وساوس وشبهات، سواء أظهرتموها أو أسررتموها، فلزم أن يتولى هو ﷻ وحده هدايتكم أيضًا.

وليكن معلومًا أنه لا بد لهداية الناس من أمرين: أولهما العلم الكامل بدقائق الفطرة البشرية، فمِن دون الإحاطة بقوى الإنسان، ما ظهَر منها وما بطَن، يستحيل توجيهه بشكل صحيح، كما لا يمكن تنمية قواه كلها؛ وثانيهما معرفةُ

ما يختلج في قلب أحد من أفكار ووساوس، لأن هناك آلافًا من الذين لا يذكرون شبهاتهم لأحد خوفًا من القوم، وأنَّى للطبيب أن يعالج مريضًا لا يساعده على معرفة مرضه. وعلى سبيل المثال يوجد في هذا العصر آلاف من المثقفين المسلمين الذين ينكرون الوحي أصلاً، ولو قلت لهم إن استمرار الوحي حق فإنهم – رهبةً من القوم – لن يصارحوك بما في قلوبهم ولن يقولوا لك بلسانهم بأن لا وجود للوحي مطلقًا، وأن كل من ادعى بتلقي الوحي كان مفتريًا أو منخدعًا، بل سيهربون من المواجهة بقولهم: ما الحاجة إلى الوحي بعد القرآن الكريم؟ كما أن هناك الملايين من بين المسلمين المعجَبين بالثقافة الحديثة الذين ينكرون حتى وجودَ الله كليةً، ولكن لو تحدثت معهم عن الله ﷻ فلن يقولوا لك صراحةً أن ليس هناك أي شيء كالإله، بل سيُلهُونك بأمور هامشية ملتوية، فمثلاً يقولون: نعم، نسلّم بوجود الله، ولكن ما الداعي لأن يتدخل هو في شؤون أهل الدنيا؟ على الإنسان أن يكون طيب القلب، وهذا يكفي لإرضاء الرب. وهكذا يتهربون من طاعة الأوامر والنواهي التي أنزلها الله ﷻ بالوحي لائذين بهذه الأقوال الباطلة التي تبناها المتصوفون الكاذبون.. من دون أن يصارحوك – خوفًا من قومهم – أنهم في الواقع ينكرون ذات البارئ ﷻ.

والواضح أن المصلح العادي الذي يجهل مثل هذه الشبهات الخفية في الصدور سوف يسوق الأدلة على أمور أخرى لا تمت إلى المرض الحقيقي بصلة، وإنما ترددها الألسنة خداعًا للقوم؛ ولكن الذي هو مطّلع على ما في القلوب من أمراض وعيوب خفية سوف يركّز على ضرورة تطهيرها من تلك الأمراض، غاضًّا النظر عما يقول الناس بأفواههم، وهكذا سوف تكلَّل حملته الإصلاحية بالنجاح. وبما أن الله ﷻ هو وحده العليم بما تخفي الصدور مثلما هو وحده الخبير بقوى الناس فهو الأولى والأحرى بإنزال الهدي لهم، ومنهجه هو وحده الذي يُكتب له النجاح في حملة إصلاح الناس. والقرآن الكريم برهانٌ عملي على هـــذه الدعوى؛ فإنه يتضمن بين دفّتيه ما يقوّم وينمّي القوى الإنسانية جميعها،

ســـواء مـــا ظهر منها وما بطن؛ كما أن تعليمه يردّ على كل شبهة توسوس بها النفس البشرية، بل إن القرآن قد رد حتى على تلك الوساوس التي بدأت تتولد في القلوب في العصر الحديث جرّاءَ التقدم العلمي المادي، وإن كان معظم الناس لا يجهرون بهذه الوساوس والشبهات خشية الآخرين.

وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴿٢١﴾

التفسير: كان من الوارد هنا أن يقول المشركون على سبيل التعنت والعناد: ليس صحيحًا أن آلهتنا غير قادرة على إنزال الهدي؛ إنها تعلم خفايا الصدور وتستطيع أن تهدي الناس لو شاءت، ولكنها لا تريد إنزال الوحي لأن الإنسان ليس بحاجة إلى الوحي. وفعلاً يزعم معظم المشركـــين بكل شـــدة أن آلهتـــهم تعلم الغيب(Rig Veda V. ٣ P. ١٧٠)، بل إن بعض الحمقى من المتصوفين المسلمين أيضًا يظنون أن النبي ﷺ كان يعلم الغيب – والعياذ بالله. أذكر أنني كنت أناقش مرة أحد المتصوفين كهؤلاء، وكنت آنذاك صبيًّا، وكان على رأسي طربوش تركي لـــه ريش، وكان ريش الطربوش في يدي. فقال لي هذا المتصوف الأحمق: إن الرسول الكريم ﷺ يعلم أن هذا الريش في يدك. فالله تعالى يرد على مثل هؤلاء الوثنيين ويقول: إن علم الغيب لا يتيسر لأحد إلا أن يكون خالقًا، لأن خالق الشيء هو وحده يعلم بما في مخلوقه من قوى وصفات، ولو علم غيرُه بصفات ذلك الشيء ومزاياه لقدر هو الآخر على خلقه، ولكن الذين تتخذونهم آلهة ليسوا بخالقين، بل هم أنفسهم مخلوقون جميعًا.

ما أروعَ ما فنّدتْ به هذه الآيةُ كونَ أحد، أيًّا كان، عالمًا بالغيب إلا الله ﷻ! ولكن يا للغـــرابة والأسف على المسلمين، إذ يوجد بينهم من يزعمون أن

عيسى عليه السلام كان يعلم الغيب ويخلق الطيور، مع أن الله عز وجل يصرح هنا أنه ليس بين كل ما يُعبَد من دون الله أحدٌ يستطيع خلقَ أي شيء. والظاهر أن عيسى عليه السلام هو من بين الآلهة الباطلة التي يعبدها الملايين.

أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾

شرح الكلمات:

يشعُرون: شعَر به شعورًا: علِم به. وشعَر لكذا: فطِن له؛ عقَل؛ أحسَّ به (الأقرب).

التفسير: أي لا بد لمن يقترح منهجًا للناس أن يكون حيًّا بالإضافة إلى كونه خالقًا، حتى إذا طرأ على خلقه فساد أزاله على الفور. وهذا دليل آخر على حرمان الآلهة الباطلة من صلاحية الهدي والإرشاد، حيث بيّن الله عز وجل أن الموت قد شمل كلَّ من تعبدونهم من دوني، فكيف يمكنهم أن يهدوكم؟ فلو حصل الآن فساد في الناس كيف يتمكن هؤلاء الأموات من دفع هذا الفساد وإزالته؟

العجيب أن كثيرًا من المسلمين يحملون عقائد تخالف هذه الآية الصريحة. فمثلاً يقولون بحياة عيسى بن مريم عليهما السلام، مع أن الله تعالى يعلن هنا صراحة أن كل من كان يُعبَد من دون الله حتى زمن نزول القرآن الكريم قد مات؛ وكان النصارى يعبدون المسيح عليه السلام، فثبتت وفاته قبل نزول القرآن بموجب شهادة هذه الآية، لأن التسليم بحياته يستلزم القول أنه لم يكن ممن اتُّخذوا آلهة بالباطل، بل كان – والعياذ بالله – إلهًا حقًّا!

لقد أبطل الله عز وجل في هاتين الآيتين عقيدة الشرك بأربعة أدلة قوية هي:

١– أنهم ﴿لا يخلُقون شيئًا﴾، مع أنه لا بد للإله أن يكون خالقًا، لأن الألوهية تستلزم الكمال المطلق.

٢- ﴿وهم يُخلَقون﴾، أي أن الآلهة الباطلة بحاجة إلى الغير، وهذا عوز ونقصان، والناقص لا يمكن أن يكون إلهًا.

٣- ﴿أمواتٌ غيرُ أحياء﴾، أي أن الآلهة الباطلة لا يملكون الآن نفعًا ولا ضرًّا، ولكن الإله يجب أن يتصف بصفة النفع والضرر في كل حين وآن.

٤- ﴿وما يشعُرون أيّانَ يُبعَثون﴾، أي أن مصيرهم أيضًا ليس في أيديهم.

قد يقول هنا أحد: ما الدليل على أنهم لا علم لهم متى يُبعثَون؟ والجواب أن سيدنا عيسى عليه السلام - الذي هو أكثر مَن يُعبَد في الدنيا من دون الله عز وجل - يقول عن يوم البعث: "وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا الملائكة الذين في السماء ولا الابن إلا الآب. انظُروا. اسهَروا وصلُّوا، لأنكم لا تعلَمون متى يكون الوقت." (مرقس ١٣: ٣٢ و٣٣)

هذا هو حال عيسى عليه السلام، فما بالك بالآلهة الباطلة الأخرى.

إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾

شرح الكلمات:

منكِرة: أنكره: جهِله (الأقرب). (لمزيد من الشرح راجع الآية رقم ٦٣ من سورة الحِجر).

التفسير: إن قوله تعالى ﴿إلهكم إله واحد﴾ ليس ادعاء بدون دليل، لأن القرآن الكريم أثناء حواره مع الكفار لا يعرض عليهم الدعوى فقط، إذ لا تجدي الدعوى بدون دليل نفعًا، بل إنه يتبع أحد طريقين: إما أن يعرض عليهم الدعوى أولاً ثم يسوق عليها البراهين، أو يقدم الأدلة أولاً ثم يذكر النتيجة المنطقية. وكل من الطريقين طبيعي يطمئنّ إليه العقل، وكل واحد منهما نافع جدًّا في محله. وقد اتبع القرآن الكريم هنا الطريق الثاني، حيث كانت الآيات السابقة تتحدث عن

موضوعين: أولهما أن كل ما في الكون منسلكٌ في سلك نظام واحد، وأن كل شيء فيه يستند إلى غيره ويعتمد عليه، وأن الإنسان هو الغاية من خلق الكون.

ثم بيّن أن غذاء الإنسان حيواني أساسًا، وأن هذه الحيوانات تتغذى على النبات من شجر وعشب، والنباتات تعيش وتنمو بالماء، والبشر يستقون من هذا الماء أيضًا كما يأكلون من هذه النباتات. وكل هذه الأشياء تأخذ في النماء والازدهار بتأثير ظاهرة الليل والنهار والأجرام السماوية من شمس وقمر ونجوم وغيرها، كما تعتمد هذه الأشياء كلها على البحر الذي يحتفظ بذخيرة الماء، فيتبخر منه ليصل إلى البشر والحيوان والنبات نقيًّا صافيًا. ولكي تبقى البحار على حالها جعل الله الجبال التي تدّخر الماء على شكل ثلوج، ومنها يجري الماء باستمرار على شكل أنهار تمر بدروب معينة لينفع العالم، ثم لينصبّ في البحر مرة أخرى، من دون أن ينتشر ويغطي سطح اليابسة كلها، وتبقى اليابسة صالحةً لعيش الإنسان عليها. كل هذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن كل ما في الكون مرتبط بعضه ببعض تحت نظام محكم، وأن العالم ليس مجموعة أشياء مبعثرة لا نظم بينها ولا ربط، بل إن كل شيء فيه يمثّل حلقةً في سلسلة كثيرة الحلقات، لو نزعت منها حلقة واحدة لانفصمت السلسلة ولم يعد لها وجود. كذلك لو نُزعت ظاهرة من هذه الظواهر لشمل الدمارُ الكونَ كله. فمثلا لو جفّت البحار لما وُجد الماء، ولو يبست الأنهار لنفدت البحار، ولو أُزيلت التضاريس التي تهيئ مجرى للأنهار لغطّت مياهها وجه اليابسة كلها، وبالتالي لم تعد الأرض صالحة للعيش عليها. ولولا الجبال لتعرضت الأرض للزلازل باستمرار، وهلك أهلها، ولجفّت الأنهار التي تستمد مياهها من ذخيرة الثلوج على قمم الجبال، لأن الأنهار سوف تصب مياهها مرة واحدة في البحار مما سيؤدي إلى الفيضانات البحرية من جهة، وإلى حرمان أهل اليابسة من الماء الذي يتوزع فيها على مدار السنة من جهة أخرى. ولولا الأجرام الفلكية لحُرمت الأرض وما عليها من تأثيرات النجوم النافعة، ولم تبق الأرض على حالتها. ولولا

الشمس لما كانت الأمطار، ولمات الإنسان والحيوان عطشًا، ولم تنضج الثمار ولا الخضار، مما سيضر بصحة الإنسان، بل لما كانت هناك أية فرصة لتيسُّر الغذاء الحيواني له.

وبالاختصار فإن كل ما في الكون يعمل معًا على خدمة للإنسان، وكل شيء فيه يعتمد على الشيء الآخر. وإذًا كيف يصح – والحال هذه – الاعتقاد بوجود أكثر من إله في الكون. لو كان هناك آلهة أخرى من دون الله ﷻ فدُلّونا على شيء في الكون ليس بخاضع لهذا النظام حتى يقال عنه إنه مخلوق بيد خالق آخر. فبما أن كل ما في الكون خاضع لنظام واحد كحلقات سلسلة واحدة فلا مناص من التسليم بأن الكون مخلوق بيد إله واحد.. اللهم إلا أن يقال أن الإله الواحد لم يكن بمفرده قادرًا على خلق الكون كله، فتوزّع الآلهةُ المتعددة الأعمالَ فيما بينهم، فأنجز كل منهم ما عُهد إليه بحسب الخطة المتفق عليها فيما بينهم من قبل. ولكن لا أحد يعتقد بهذا حتى ولا الملحدون، لأنه منافٍ للعقل، إذ لا يمكن أن يكون الناقص إلهًا. وهذا الدليل يوصل المرء إلى نتيجة واحدة فقط هي: ﴿إلهكم إله واحد﴾.

وكان الموضوع الثاني الذي نوقش في الآيات السابقة هو أن كل من اتُّخذ إلهًا من دون الله تعالى قد أدركه الموت، فليس هناك إلا الإله الواحد الحق الذي هو أسمى من أن تصل إليه يد الفناء؛ فثبت بذلك أن قوله تعالى ﴿إلهكم إله واحد﴾ نتيجة منطقية لما ذُكر من قبل، وليس بادعاء خال من الدليل والبرهان.

ثم قال ﷻ ﴿فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبُهم منكرةٌ وهم مستكبرون﴾. والفاء هنا جاءت بمعنى الواو بحسب عادة العرب (راجع الأقرب)، وتمثّل هذه الجملة ردًّا على اعتراض محتمل وهو: إذا كانت وحدانية الله أمرًا بديهي الثبوت فلماذا ينكر الناسُ ذلك؟ فقال ﷻ: إن إنكارهم وحدانيةَ الله تعالى ووقوعهم في الأعمال الوثنية لا يستند إلى دليل ولا برهان، وإنما مرجعه أنهم قد أصبحوا في الواقع منكرين للبعث بعد الموت، فلم يعودوا جادّين في أمور الدين. ذلك لظنهم

أنهم لن يحاسَبوا على أعمالهم فلا يفكّرون بجدية فيما إذا كانت أفعالهم حسنة أم سيئة، كما لا يرون في التعصب والتعنت بأسًا، وبالتالي يتمكن الجهل والغباوة من قلوبهم، فلا يبقى لديهم تلك الفطنة والشعور التي يملكها من يدرك أن أعماله ستأتي حتمًا بنتائج هامة، فينكر هؤلاء حتى البديهيات اليقينيات غير مكترثين. فقوله تعالى﴿قلوبهم منكِرة﴾ يعني أنهم غافلون وأغبياء، فلا يدرون أن هناك تعارضًا سافرًا بين عقائدهم.

وهناك مرض آخر يصيب هؤلاء المنكرين - نتيجة إنكارهم للبعث بعد الموت- ألا هو الكِبر والغطرسة، لأن منكر الآخرة لا يحذر من العواقب، والذي لا يخاف العواقب يتكبر ولا يرى لقبول الحق حاجة.

فالواقع أن الآية تذكر نوعين من المشركين: أولهما مَن ﴿قلوبهم منكرة﴾، أي الذين قد ركِبهم الجهل، فلا يملكون من الشعور ما يدفعهم للتفكير بجدية؛ وإن مرض قلوبهم هذا يحرمهم من الإيمان. والنوع الآخر مَن ﴿هم مستكبرون﴾، أي الذين إذا سمعوا البراهين على وحدانية الله ﷻ استيقنتها قلوبهم، ولكنهم يأبَون الاعتراف بالحق بألسنتهم تعصبًا واستكبارًا، لأن إنكارهم للجزاء والعقاب قد جعلهم غير مبالين، فلا يرون في إنكار الحق حرجًا ولا ضررًا.

لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾

شرح الكلمات:

لا جَرَمَ: من جرَم يجرِم جَرمًا: قطَع: قال الفرّاء: هي كلمة كانت في الأصل بمنـــزلة "لا بدَّ" و"لا محالةَ"، فجَرتْ على ذلك وكثرت حتى تحولت إلى معنى القَسم وصارت بمنـــزلة "حقًّا"، وهو مأخوذ من معنى القطع (الأقرب).

التفسير: يعلن القرآن الكريم هنا أن البراهين المذكورة أعلاه إذ تدل على وحدانية الله ﷻ، فإنها تؤكد أيضًا على كونه عالِمَ الغيب، وأن الذي يعلم سرَّهم وعلانيتهم لا بد أن يجزيهم على أعمالهم؛ بيدَ أنه لن يعاقب الجميع على سواء، بل الذين كفروا بيوم البعث جهلاً سيكونون أخفَّ عقوبةً من الذين علموا أن التوحيد حق، ومع ذلك أنكروه عنادًا واستكبارًا؛ فقوله تعالى ﴿إنه لا يحب المستكبرين﴾ إشارة إلى أن الذين يكفرون عمدًا يستوجبون عقابًا أشدَّ.

وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾

شرح الكلمات:

أساطير: سطَر الكاتبُ: كتَب. سطَر الرجلَ: صرَعه. سطَره بالسيف: قطَعه به. والإسطار والأُسطار والأُسطور والأُسطير: ما يُسطَر أي يُكتب، وتُستعمل في حديث لا نظام لـــه، و(تُستعمل أيضًا) للحكايات، جمعه أساطيرُ (الأقرب).

التفسير: لقد عاد الحديث هنا إلى الموضوع الأَصلي مرة أخرى حيث يخبرنا القرآن أن منكري التوحيد والبعث حين يسمعون هذه البراهين لا يفكّرون فيها، بل يقولون: ما الجديد الذي يقدّمه هذا النبي؟ إنه ينقل ما كتبه الأولون من أمور تافهة لا قيمة لها.

لا شك أن "الأُسطور" يعني الكتاب والحكاية أيضًا، ولكن من الأفضل – نظرًا إلى السياق – أن نأخذه هنا بمعنى الكتاب، لأن هذه السورة لا تحكِي لنا قصص الأنبياء، وإنما تتناول بعض الأدلة والبراهين؛ فالمعنى أن أعداء الحق حين يسمعون هذه البراهين ويخافون أن يقتنع بها الناس فإنهم يقولون على سبيل الازدراء: ليس في هذه الأقوال من جديد، فقد سبق أن ذكر الأوائل في كتبهم مثل هذه الأمور التافهة؛ وذلك لكي يوهموا أتباعَهم أن ما يقوله النبي ليس من كلام الله ﷻ، وإنما نقل عن كتب الأولين، وكُنّا به عالمين ومن خطئه متأكدين.

الحق أن أعداء الحق وأئمة الكفر في كل عصر يلجئون إلى هذه الحيلة الملتوية. فحين يسمعون من أهل الحق أدلتهم القوية ويرون أنهم عاجزون عن دحضها يفرّون من المواجهة دومًا قائلين: على رِسلك يا فلان! ليس بيدك شيء معقول؟ إذ ما زال الناس منذ القدم يردّدون مثل هذه الأقوال السخيفة. فيَظل الجهال الذين يتبعون أعداءَ الحق هؤلاء غافلين عن قوة براهين أهل الحق، فرحين بأن ما يقول لهم نبيهم ليس بشيء جديد، فلا يمكن أن يكون من عند الله تعالى. وكأن كل ما ينـــزل من عند الله ﷻ يجب أن يكون شيئًا جديدًا، مع أن الواقع يخالف ذلك؛ لأن الهدف من نزول الوحي هو إحياء الحقائق السابقة التي تلاشت واختفت من العالم. لا شك أن الوحي يتضمن أيضًا بعض المعارف الجديدة وفق مستجدّات العصر، ولكن المبادئ التي يدعو إليها الأنبياء جميعًا هي موحَّدة مشترَكة بينهم، ومن خالَفَ تلك المبادئ وجاء ببدع فهو كاذب حتمًا.

لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٢٥

شرح الكلمات:

أوزار: وزَره: حمَله. وفي اللسان: حمَلَ ما يُثقل ظهرَه من الأشياء المثقِلة. والوِزْر: السلاحُ لثقله على حامله؛ الحِملُ الثقيل، وجمْعُه أوزار (الأقرب)

التفسير: يقول الله تعالى: لا جرمَ أن أعداء الحق ينجحون في خداع العامة بأقوالهم، ولكنهم يفسدون بذلك عاقبتَهم أكثر من ذي قبل، لأنهم سوف يعاقَبون على تضليل الآخرين بالإضافة إلى جزاء معاصيهم.

مع العلم أن اللام في قوله تعالى ﴿ليحملوا﴾ هي لام العاقبة أي لبيان النتيجة، والمراد أن عذابهم المضاعَف نتيجةٌ للخداع الذي كانوا يلجئون إليه.

وقوله تعالى ﴿بغير علم﴾ متعلق بضمير (هم) الوارد في قوله ﴿يُضلّونهم﴾، والمعنى أن أئمة الكفر هؤلاء كانوا يُضلّون بأقوالهم أتباعَهم الذين كانوا بغير علم.. أي كانوا جاهلين. وليس المراد أن أئمة الكفر كانوا بسبب جهلهم يُضلون الآخرين، إذ صرحت الآيات السابقة أنهم يُضلّونهم تعصبًا وفسادًا لا غير.

ويمكن تفسير لفظ ﴿كاملةً﴾ بطريقتين: أولهما أن نعتبره متعلقًا بيوم القيامة، فيكون المعنى أنهم سينالون جزاء بعض أعمالهم في الدنيا، ولكنهم يُجزَون عليها كاملةً يوم القيامة. وثانيهما أن يكون متعلقًا بفعل ﴿لِيَحملوا﴾، فيكون المعنى أنهم سيحملون أثقال أعمالهم كاملةً من دون أن يُنقص منها شيء، ذلك أن المؤمن يستغفر اللهَ في الدنيا فيغفر له ذنوبه ويقلّ ثقلُه، ولكن هؤلاء المتكبرين يصرّون على الذنوب عنادًا، فلا يُحَطّ من ذنوبهم شيء، لذلك سوف يحملونها كاملةً.

قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

شرح الكلمات:

مَكَرَ: مكَره: خدَعه. مكَر اللهُ فلانًا: جازاه على المكر. قيل: المكرُ صرفُ الإنسان عن مقصده بحيلة، وهو نوعان: محمود يُقصَد فيه الخيرُ، ومذموم يُقصد فيه الشرُّ (الأقرب).

فأتى اللهُ بنيانَهم: أتاه: جاءه: أتى الأمرَ: فعَله. أتى المكانَ: حضَره: أتى على الشيء: أنفدَه وبلَغ آخرَه. أتى عليه الدهرُ: أهلكه (الأقرب).

خرَّ: سقَط سقوطًا يُسمَع منه خرير. وخرَّ الحجر: صوَّت منحدرًا (الأقرب).

القواعد: قواعد البيت: أساسُه (الأقرب).

التفسير: يقول الله ﷻ: إن إثارة العامة ضد محمد ﷺ تضليلاً وتعتيمًا ليس بأمرٍ بِدْعٍ من هؤلاء الكفار، إذ ما زال هذا دأب أعداء الحق ضد كل نبي في كل عصر، ولكن مكائدهم لم تنجح أبدًا بل انقلبت عليهم.

ما ألطَفَ هذا البيانَ وما أروعَه! لقد سجل القرآن الكريم من قبل اعتراض الكفار بأن محمدًا لم يأت بشيء جديد، وإنما يقول ما يقول نقلاً عن الأولين، فرد الله عليهم بالأسلوب نفسه قائلاً: صحيح أن كثيرًا مما يقوله هذا النبي هو نفس ما قاله الأنبياء السابقون، وتظنون أنه يقول هذا تقليدًا لهم، ولكن ألا تفكّرون أنكم أيضًا تقلّدون أعداء الرسل الأولين إذ ترتكبون ضده نفس الشرور والمكائد التي ارتكبها هؤلاء ضد رسلهم. فلو كان وحيه تقليدًا للرسل الأولين، فهو تقليد محمود، ولكن تقليدكم مذموم، لأنه تقليد الأشرار. فلا يمكن أن تفرّوا بهذه الحجة من مواجهة الموقف أيضًا، لأن رسولنا يقلد الذين فازوا في هدفهم في آخر المطاف، ولكنكم تقلدون قومًا كان مصيرهم الهلاك، فلا شك أنكم الخاسرون في كل حال. إن أعداء الحق في الماضي أيضًا قاموا - مثلكم - بتأليب العامة على رسلهم، زاعمين أن ما يقولونه إنما هو تقليد لمن قبلهم، فهل استطاعوا بمكائدهم أن يحولوا دون انتشار تعاليم أنبيائهم؟ وهل نجحوا في تدميرهم وإهلاكهم؟ كلا، بل كانوا هم الهالكين.

ثم وصف العذاب الذي دمّر أعداء الحق فقال: ﴿فأتى اللهُ بُنيانَهم من القواعد فخرّ عليهم السقف﴾.. أي أنه تعالى أنزل عليهم العذاب الذي هدّ مبانيهم من أسسها فسقطت الجدران مع السُقف.. والمراد أن كلهم - أسيادًا وأتباعًا - هلكوا أجمعين؛ فالجدران أي الأتباع الذين كانوا يعتمدون على الأسياد سقطوا على وجوههم أي على أسيادهم كما تسببوا في هلاكهم أيضًا. فلا تغتروا، يا أعداء محمد، بما تتمتعون به من نفوذ وسلطان على العامة، لأنه حين يأتي عذاب

الله ﷻ فلن تنفعكم السلطةُ ولا النفوذ شيئًا، بل سيدمَّر نظامكم، ويسقط الأسياد مع الأتباع، بل إن الأتباع هم الذين يتسببون في هلاك الأسياد.

ثم أخبر ﷻ أن العذاب فاجأ الكفار بشكل خارق دائمًا، حتى إن أئمة الكفر أيضًا لم يشعروا بقدومه إلا بعد أن داهمهم، لأنه جاءهم بطرق لم تخطر ببالهم.

علمًا أن تعبير "إتيان الله الكفارَ" يعني في القرآن الكريم دائمًا نزول عذاب الله عليهم. ولكن البهائيين يستنتجون من هذا التعبير القرآني وما شاكلَه استنتاجًا خاطئًا حيث يقولون: لقد أكد القرآن أن الله نفسه سيأتي، وها قد ظهر الله الآن في شخص "البهاء". ولكن الحق أن هذا التفسير البهائي يخالف تمامًا فحوى القرآن الكريم كما هو واضح من هذه الآية بكل جلاء. إن تفسيرهم مقبول في صورة واحدة فقط، وذلك إذا اعتبرنا "البهاء" عذابًا لأهل هذا الزمن. ولا اعتراض عندنا على اعتبار "البهاء" تجليًّا قهريًّا من عند الله تعالى، لأنه ﷻ يعذّب الغافلين عن دينه بما يزيدهم غفلةً وعمايةً.

هذا، وبسرد أحداث الأمم السابقة حذّر الله ﷻ أهل مكة أن نظامهم منخور من داخله، وموشك على الانهيار بنفسه؛ فأنَّى لهم أن يدمروا النظام الذي جاء به محمد ﷺ؛ كلا، بل إن بناءهم هو الذي سينهار بجدرانه وسقفه وهم ينظرون. ويعلم الذين لهم إلمام بالتاريخ أن المكيين كانوا في الظاهر غالبين حتى بيوم واحد قبل فتح مكة، ولكن الوضع انقلب فجأةً، وانهار بناؤهم على الأرض كلية.

ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٨﴾

شرح الكلمات:

ثُمَّ: حرفُ عطفٍ يدل على الترتيب والتراخي، ربما أدخلوا عليه التاءَ كما قال:

ولقد أمرُّ على اللئيم يسبّني فمضيتُ ثُمّتَ قلتُ لا يعنيني (الأقرب)

يوم: اليومُ من طلوع الفجر إلى غروب الشمس؛ الوقتُ مطلقًا (الأقرب).

يُخزي: أخزاه: أوقعَه في الخِزي أو الخِزاية وأهانَه. أخزى اللهُ فلانًا: فضَحه. والخزي: الهوانُ؛ العقابُ؛ البعدُ؛ الندامةُ، وأصل الخزي: ذُلٌّ يُستحيا منه (الأقرب).

تُشاقُّون: شاقَّه: خالَفَه وعاداه (الأقرب).

التفسير: في بعض الأحيان ينـــزل بالإنسان مصيبة تُلحق به الضرر، ولكنها لا تسبب له أي عار أو إهانة، وأحيانًا يحل به خطب لا يُهلكه ولكن يهينه ويخزيه. يقول الله تعالى: إننا سوف نصبّ على أعداء نبينا الكريم عذابًا يفضحهم ويدمرهم أيضًا.

ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾

شرح الكلمات:

السَّلَم: الاسمُ من التسليم بمعنى السلام؛ الاستسلامُ (الأقرب).

بَلَى: جوابٌ للتحقيق، توجب ما يقال لك لأنها تركٌ للنفي، فإذا قلت لزيد: أليس عندك كتاب، فقال "بلَى" لَزِمَه الكتاب، وإن قال "نَعم" فلا يلزمه (الأقرب).

التفسير: لقد صرح الله هنا أن هذا العذاب إنما يصيب أولئك الكفار الذين يصرون على الكفر حتى الموت، حيث بيّن بقوله ﴿ظالمي أنفسهم﴾ أن هؤلاء يُفنون أعمارهم ظالمي أنفسهم وهم يحسبون أنهم يؤذون النبيين؛ فمثلهم كمثل

الوحش الذي لا يبرح يلعق الحجر فيجرح لسانه، ظنًّا منه أن لذةَ الدم الذي ينـــزف من لسانه إنما هي طعم الحجر، فلا ينفك يلعقه حتى يفقد لسانه كله.

والسَّلَم هو الصلح، لأنه يؤدي إلى سلامة كل من الفريقين من شر الآخر.

والمراد من قوله تعالى ﴿فأَلقَوُا السَّلَمَ﴾ أنهم حين يرون العذاب لن يجدوا لهم مهربًا، فيدعون إلى التصالح.

وأما قولهم ﴿ما كنا نعمَل من سوء﴾ فلا يعني - عندي - أنهم لن يعترفوا بتورطهم في الشرك، بل المراد أنهم لن يستطيعوا عند رؤية العذاب أن ينكروا عبادتَهم لآلهتهم، لذلك سوف يبررون أعمالهم الوثنية بقولهم: لم نعملها بنية سيئة إنما عملناها بحسن النية. وهذا ما نراه في الدنيا أيضًا، فإن المشركين يقولون لدى عجزهم عن دحض براهين أهل التوحيد: لا نسجد للأصنام وغيرها باعتبارها آلهةً، وإنما نفعل ذلك تركيزًا لتفكيرنا، وإلا فإننا لا نعبد إلا الله وحده! ويرد الله عليهم بقوله: ﴿بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون﴾.. أي ليس قولكم هذا إلا عذرًا واهيًا، لأننا أعلم بأي نية كنتم تعبدون آلهتكم الباطلة، بل كنتم مشركين، لأنكم لو كنتم تبحثون عن الله ﷻ بصدق النية لما لجأتم إلى هذه الطرق الزائفة.

وقد يكون المراد من قولهم: ﴿ما كنا نعمَل مِن سوء﴾ أننا بذلنا كل ما أوتينا من فطنة وذكاء، و لم نفعل ما فعلناه إلا ظنًّا منا أنه الحق؛ فيرد الله ﷻ عليهم: إنكم كاذبون. إذ لو كنتم في الواقع صادقي النية في أفعالكم لهديناكم طبقًا لسنتنا المستمرة: ﴿والذين جاهَدوا فينا لنَهدينّهم سبلَنا﴾(العنكبوت: ٧٠). فلو بحثتم عنا بحسن النية لما سلكتم طريقًا خاطئًا، بل لتولَّينا هدايتَكم إلى صراطنا المستقيم. فلا يمكن أن تنجوا من العقاب بتقديم هذا العذر الواهي.